كنوز الثلج

بتريسيا سنجن

كنوز الملاح

تأليف

بترليف ياسنجي

كنوز الثلج

بقلم

بترليس يارسنجي

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

يحظر على اي كان اعادة طبع جزء أو اجزاء من هذا الكتاب
أو استعماله في برامج اذاعية دون اذن مسبق من الناشرين .

طبعة رابعة ١٩٨٠.

صدر عن
دار منشورات النفير

ص. ب ٥٠٣٩ – بيروت

مقدّمة

كنت في السابعة من العمر حين ذهبت للمرة الاولى الى سويسرا. وكنت اسكن في بيت صغير انيق قائم على جبل ، ومن ذلك البيت أُطل على القرية التي تصورتها مرتعاً لأنيت وداني .

كان ذلك منذ عشرين سنة ونيف . ورجعتُ اليوم الى سويسرا ولكن كزائرة لا غير،فوجدت ان كثيراً من الامور قد تبدل، وان سويسرا تختلفة اليوم عما كانت عليه سابقاً . اما الكنيسة والمدرسة الصغيرة فهما بعدُ على حالتهما ؛ وجلاجل القطعان ما تزال ترن في الوادي،والنرجس ما يزال يعبّق الحقول بأريجه الفوّاح في شهر ايار.

لم أدعُ القرية باسمها، لاني اضفتُ الى حياة القرية اموراً هي من اختراع خيالي . ولكن حاولت جهدي ان احفظ لحياة القرية لونها الطبيعي دون اي تكلّف .

الفصل الاول

كانت ليلة الميلاد . وكان ثلاثة اشخاص يتسلقون سفح الجبل وقد رسم ضوء القمر ظلالهم على الثلـج : امرأة مرتدية ثوباً واسع الاذيال يعلوه معطف اسود ، وولد ، في السادسة من عمره اسود الشعر كثير الكلام، وبنت تكبر الولد سنة كانت تسير متجنبة وتنظر الى النجوم وتضم الى صدرها كعكة مطيبة بالزنجبيل ، كعكة لهـا شكل دب بعينين من السكر الابيض. وكان مع الولد ايضاً دب لم يبق منه سوى قائمتيه الخلفيتين . نظر الولد الى البنت بشيء من الخبث وقال :

« ان دبي كان اكبر من دبك » .

فأجابت البنت: «لا اريد ابدال دبي بسواه». ورفعت دبها بعطف تتأمله وتعجب بمتانته وشذى رائحته الشهية ! يا لمنظره البهي ! انها لن تأكله ابـداً وانما ستحتفظ به تذكاراً ! اجل ! وكلما نظرت اليه سوف تتذكر ليلة الميلاد والسماء الزرقاء وانوار الكنيسة الوهاجة والشجرة المزينة بالنجوم الفضية وترانيم الميلاد وقصة الميلاد المؤثرة للغاية ...

قلق لوسيان (الولد) لصمتها فقال عابساً : لم يبق من دبي الا القليل ، أفلا تسمحين لي بان اذوق كعكتك ! فهزت رأسها وضمت دبها الى صدرها بحنان وقالت : « انا لن آكله ابداً بل سأحتفظ به ما حييتُ » .

وصل الثلاثة الى مفترق طرق . وكانت احدى هذه الطرق وعرة مغطاة بالثلوج وآثار الزلاجات ظاهرة عليها . وعلى مسافة مئة متر في جهة المفرق الايمن ظهرت البيوت الخشبية وظهرت الانوار من نوافذها ، وبدت والاهراء المظلمة من خلفها لم تعد أنيت بعيدة عن بيتها . فقالت السيدة موريل: «أتذهبين وحدك الى البيت ام نرافقك حتى الباب ؟ »

— «افضل الذهاب وحدي. ليلتك سعيدة يا سيدتي! ليلتك سعيدة يا لوسيان » . واسرعت في الجري خوفاً من ان تغير السيدة فكرها فتعود الى مرافقتها وهرباً من ثرثرة لوسيان ورغبةً منها في تأمل النجوم الهادئة .

هذه اول مرة تخرج فيها أنيت وحدها في جنح الليل. كان والداها قد صمما على مرافقتها الى الكنيسة على الزلاجة، غير ان امها مرضت في ذلك الصباح فذهب والدها بالقطار الى المدينة ليأتي بالطبيب . حضر هذا فاغدق العناية بالوالدة، ومع ذلك فلم يكن بامكانها النهوض الى الكنيسة . ولذا رأينا البنت في رفقة السيدة موريل. ولكن بعد ان رأت البنت ما رأت في الكنيسة نسيت كل شيء ما عدا الشجرة وروعة الميلاد وذكرى الطفل المجيد المضجع في المذود ... كانت

تقول في نفسها حين وصلت مدخل بيتها : آه لو وُلد الطفل في بيتنا لوجد فيه مكاناً نظيفاً ومتسعاً !

قالت هذا وتوجهت الى حظيرة البقر تلاطف هذه وتداعب تلك... وفجأة سمعت وقع خطوات ثقيلة على الثلج ، وسمعت والدها يدعوها بلهجة المضطرب فأسرعت اليه فاتحة ذراعيها وقالت ضاحكة : «دخلت الحظيرة لاهدي البقرات تحية العيد ، هل جئت تفتش عني ؟» قال بلهجة غاية في الجد : « نعم ». وما خفيت على البنت امارات الحزن البادية على وجه والدها . ثم اخذها بيدها ومشيا معاً . فقال لها : « كان الاجدر ان تأتي حالاً الى البيت اذ ان امك مريضة جداً ، وهي تسأل عنك وتود ان تراك » .

اضطربت أنيت في داخلها . ان شجرة الميلاد قد انستها كل شيء ، في حين ان والدتها المحبوبة طريحة الفراش تود ان تراها . سحبت يديها من يد والدها واسرعت تركض وقد وخزها ضميرها ، الى ان وصلت الى غرفة امها. فدخلت برشاقة وهدوء دون ان يشعر بها الطبيب او الممرضة ، وما ان لامست سرير والدتها حتى ضمتها هذه بذراعيها الضعيفتين. وأنيت ، دون ان تفوه بكلمة ، أخفت رأسها تحت كتف والدتها واستسلمت للبكاء . فاصفرار وجه الام قد روعها وشعرت باسف شديد لتغيبها عنها ذلك الوقت الطويل. همست الام اليها قائلة: « كفي عن البكاء ، ان لك عندي هدية ». كفت أنيت للحال عن البكاء . وكان من عادة هذه الوالدة ان تقدم لابنتها هدية في رأس كل سنة جديدة ، فما عسى ان تكون الهدية هذه السنة؟ التفتت الام الى

الممرضة هامسة: «اعطيها اياه». رفعت الممرضة الغطاء وحملت صرّة ملفوفة بشال ابيض وقدمتها لأنيت قائلة: «انه اخوك الصغير! لننزل الى الطابق الاسفل ولنجلس قرب الموقد، وهناك تهزينه في سريره. ينبغي ان نترك والدتك تنام، قبليها يا أنيت وهلمي معي».

مالت الام نحو ابنتها وقالت بصوتها الضعيف: «هذا اخوك الصغير، هو لك يا أنيت، احبيه وربيه واعتني به، اني اعطيتك اياه».

وهنا انخفض صوتها ثم اغمضت عينيها. اما أنيت فذهلت عن الكلام واطاعت الممرضة ونزلت معها الى الطابق الاسفل ثم جلست على كرسي صغير قرب الموقد، تهز السرير الخشبي حيث اضطجع الطفل ملفوفاً بالاقمطة الدافئة. جلست طويلاً بكل سكون، تنظر الى اخيها الصغير امامها.

الثلج في الخارج قد عكس نوراً غريباً على الحائط، والموقد احتدم ضياؤه الوردي على السقف. كان البيت هادئاً للغاية، ومن مصراع النافذة بعث نجم العيد نوره الى الداخل مثلما اضاء على ذلك الطفل في مذود بيت لحم اذ كانت مريم امه جالسة بقربه تتأمله. وها هي أنيت جالسة امام الموقد تتأمل اخاها الصغير. وبكل وقار لمست باصابعها رأسه الناعم، الذي لم تستطع ان ترى غيره من بين الاقمطة، ثم اسندت رأسها الى السرير متنهدة متعبة، واطلقت المجال لمخيلتها تسرح حيث شاءت: النجوم... الرعاة... اطفال صغار... ابواب مقفلة... مجوس... دببة مطيبة بالزنجبيل.. كل ذلك تراكم على افكارها. فما كان منها الا ان غلبها النعاس، فاستلقت على الأرض

قرب السرير. هنا وجدها والدها بعد مرور ساعة نائمة بسلام كاخيها الطفل متوسدة طرف السرير . فانحنى ليرفعها وهو يقول : « لهفي عليكما ايها الصغيران ! كيف يمكنني ان اربيكما بدونها ؟» ذلك ان والدة انيت فارقت الحياة وذهبت تحتفل بعيد الميلاد مع الملائكة .

وهكذا ، بعد وفاة الام ، اصبح دانيال وله من العمر ثلاث ساعات ، في عهدة اخته أنيت البالغة السابعة من عمرها .

كانت ممرضة البلدة تأتي ، في اول الامر ، للاهتمام بالطفل والقيام بتنظيفه وتغذيته . ثم رأى الوالد ان يستخدم امرأة من البلدة تأتي يومياً لتعتني بالطفل . ولكن الطفل كان لأنيت، وكان معروفاً لدى الجميع بطفل أنيت .

ولما افاقت أنيت من لوعة حزنها جمعت كل ما في قلبها الكسير من حب وحنان فسكبته على اخيها الطفل . كانت تمسك له القنينة فيمتص منها الحليب ، وتجلس بهدوء قرب سريره لئلا يستيقظ فلا يجدها ، وتسرع اليه كلما بكى ، وتحمله عند الظهيرة الى خارج لتشرق عليه الشمس بانوارها الدافئة . في جو تلك المحبة وفي ضياء الشمس نما الطفل، ولم يكن له مثيل في ذلك الوادي بالصحة والجمال. كان ينام ويستيقظ ويبتسم ويلبط برجليه ويعود فينام ثانية. لم يسبب انزعاجاً لاحد كما صرحت احدى نساء القرية وهي تتأمله قائلة : «لا شك انه ولد تحت نجم سعيد». فأجابتها أنيت برصانة : «لقد ولد تحت نجم الميلاد ، ولا شك انه سيبقى سعيداً هنيئاً» .

هناك على سفوح الجبال بدأت الشمس تذيب الثلوج، وبدأ الزعفران يوشّي الحقول . وكان الطفل ينمو ويكتنز ففكرت أنيت في تحضير ثياب جديدة له. ثم نبتت اسنانه. ثم تعلم الطفل ان يمص اصبعه...

في ذات مساء أضجعت أنيت طفلها ثم نزلت الى غرفة الجلوس فوجدت اباها قرب الموقد ورأسه بين يديه مثقل بالهموم والاحزان اكثر من ذي قبل . فدنت منه برفق ، وها هي تصعد على ركبتيه واضعة خدها الناعم على جبينه الاسمر الصلب وتقول بحنو: «ما بك يا والدي؟ هل انت تعب جداً الليلة؟ أتريد ان احضر لك فنجاناً من القهوة ؟» نظر اليها والدها لحظة متأملاً مخاطباً نفسه: «انها لصغيرة ، ولكن ما انضج عقلها وارق شعورهـا » ! كان له عادة ان يفاتحها باكداره ومصاعبه ويستمع الى نصائحها الرصينة السديدة، وها هوذا الآن يضمها الى صدره ويقول لها بلهجة الحسرة والاسف :

« بُنيّتي ، سوف نضطر الى بيع احـدى البقرات ، والا تعذر عليّ ان اشتري لك حذاء في الشتاء المقبل ».

رفعت أنيت رأسهـا متفرسة فيه برعب . ان لهم عشر بقرات فقط ، وكل منها صديقة خاصة لها . اذن عليها ان تجد خطة افضل لتحصيل النقود .

فقالت : « لا حاجة بنا يا والدي الى خادمـــة في بيتنا فانا قد اصبحت في الثامنة والنصف وباستطاعتي ان اعتني بداني كأي شخص آخر ، ولن تدفع لي شيئاً ، وهكذا نستطيع ان نحتفظ بالبقرات . آه يا والدي ! كم تصبح البقرات تعيسة اذا تركتنا ! لا شك انهـا ستبكي حزناً علينا ...»

– « لكن يجب ان تذهبي الى المدرسة يا أنيت . ليس صواباً ان ابقيك في البيت. فان ذلك مخالف للقانون. ولا بد ان يستخبر عنك المعلم ويستفسر عن سبب تغيبك فيخبر بذلك ذوي الامر فنقع في مأزق حرج ... »

اجابت أنيت مقطبة : « ولكن العناية بداني أهم من كل شيء . وان اطلعت المعلم على حقيقة الحال فلن يكون الا موافقاً . ثم أليس المعلم لطيفاً طيب المعشر وأحد اصدقائك ؟ يمكنني ان أتعلم دروسي هنا في المطبخ كل صباح ، بينما داني يمرح ويلعب على الارض . وعلى كل حال فلن يطول ذلك سوى اربع سنوات . ومتى وطىء داني عتبة الخامسة يمكنه الذهاب الى روضة الاطفال. ارافقه الى المدرسة ثم اذهب الى مدرسة الكبار ».

نظر الوالد الى ابنته طويلاً متأملاً : نعم ، انها لصغيرة لكنها بارعة كالام في عنايتها بالطفل ، ومدبرة نشيطة في البيت ؛ غير انها لا تحسن الطبخ ، ويتعذر عليها ان تعمل اي شيء شاق؛ وعدا ذلك فلا يجوز ان تتعطل عن المدرسة . جلس برهة صامتاً مطرقاً، وفجأة خطر له هذا الفكر :

– « لا اعلم ما اذا كانت جدتك تود ان تسكن معنا . انها مسنة ضعيفة النظر، لكنها تستطيع الطبخ واصلاح الثياب. وقد تساعدك في دروسك عند المساء ، وتكون معك في اثناء غيابي على الجبال. انك اصغر من ان تتركي وحدك طول النهار . سأخبر المعلم ان جدتك ستساعدك في الدروس فلعله يتغاضى » .

نزلت أنيت عن ركبته واسرعت فاحضرت الورق والقلم، وقالت: «والدي ، اكتب لكليهما الآن. سآخذ الرسالتين الى البريد عند ذهابي لشراء الخبز . لا شك في الحصول على جواب بسرعة .»

وفي ذلك الاسبوع عينه تلقى الوالد جواب رسالتيه . الجواب الاول كان حضور الجدة . وصلت بالقطار منحنية الظهر متثاقلة الخطوات ، ففرح بمقدمها الجميع حتى الطفل داني الذي كان يتفرس دائماً في نظارتيها الفريبتين. وفرحت الجدة ايضاً برجوعها الى ذويها. وكانت تحب ان تقول لأنيت : يا بنيتي انا جئت هنا لأعمل جهدي على مساعدتك .

اما الجواب الثاني فكان حضور استاذ المدرسة الى البيت . وما ان وصل الى المدخل الخارجي حتى رفع صوته سائلاً : «أنيت ، اين والدك ؟» فقالت : «ذهب ولا اعلم موعد رجوعه». فقال: «اتيت ، تلبية لطلبه ، لنتباحث بشأن المدرسة . انقطاعك عن المدرسة غير صواب ، بل هو مخالف للقانون » .

فقاطعته الجدة وقالت بتؤدة: «ولكن الحكومة لن تعلم الا مقدار ما تخبرها انت . فان كتمت الامر وتغاضيت احسنت الينا جميعاً . انا لن اترك البنت وشأنها ، بل سأقوم بتعليمها. وهل يعقل ان يترك طفل صغير كداني بعيداً عن عناية اخته ! »

فأجاب الاستاذ بلهجة تدل على حزم ولطف معاً : « سأكتم عن الحكومة الخبر بشرط واحد وهو ان تزورني أنيت صباح كل سبت فيتسنى لي امتحانها بما تكون تعلمته في بحر الاسبوع . فان وجدتها

ناجحة تفاضيتُ ، والا فسأجبرهـا على الاتيان الى المدرسة ومتابعة دروسها كباقي التلاميذ .

في صباح كل سبت كانت أنيت تقصد الى بيت الاستاذ حاملة سلة الخبز على ظهرها وكتبهـا ودفاترها بيدها . وكان الاستـاذ يهش لاستقبالها . وكانا، شتاءً ، يجلسان قرب النار لتناول الكعك والشاي؛ ويجلسان ، صيفاً ، على شرفة المنزل يأكلان الكرز ويشربان عصير التفاح ، ثم يبتدىء الامتحان .

الفصل الثاني

مرت خمس سنوات واصبح داني ايضاً في الخامسة من عمره . وها نحن من جديد في ليلة عيد الميلاد. رافق داني اخته الى الكنيسة ورأى شجرة العيد لاول مرة .

وبعد رجوعهما الى البيت جلس داني في سريره فأحضرت له اخته الحسناء (الشوربا) وجلست الى جانبه وبيدها دبّ من كعك الزنجبيل وقالت : «لا يا اخي ، لا تقدر ان تبقي الدبّ معك في الفراش، والا فسيغدو فتاتاً عند الصباح. انظر ! سأضعه على الخزانة هنا . فيضيء عليه القمر فتراه جيداً .»

فلم يفتح داني فاه للاعتراض ، بل شرع في احتساء الشوربا. كان دائم الفرح من الصباح الى المساء ، سعيداً في كل ساعة . وكان فرحه في هذه الليلة شديداً لا يوصف لانه سمع اجراس العيد وشاهد الشجرة المتلألئة بالانوار، ومشى في الليل على الثلج تحت ضوء النجوم . ناول اخته القصعة الفارغة والتف بلحاف الريش مستلقياً على فراشه وقال: « اتظنين ان بابا نويل سيأتي اذا وضعت خفّي على عتبة النافذة ؟ »

فنظرت اليه أنيت في دهشة وقالت في نفسها: ترى اين سمع عن خبر بابل نويل؟ ان الناس في سويسرا قلما يذكرونه بخلاف الانكليز؛ والاولاد السويسريون يحصلون على دبّ العيد من الشجرة مساء الميلاد، وعلى الهدايا من اهلهم في رأس السنة الجديدة . يوم الميلاد يذهبون الى الكنيسة للعيد وقليل هم الذين يحصلون على هدايا في الميلاد .

اضاف داني يقول : سمعت ان بابا نويل يأتي بزلاجة تجرها الايائل ويضع الهدايا في اخفاف الاولاد «العاقلين» . ألست ولداً « عاقلاً » حسن الاخلاق يا اختي ؟

فضمته اخته تقبّله وتقول : «بدون شك يا داني انك ولد حسن السيرة . ولكن هيهات ان تحصل على هدية بابا نويل ، فهو لا يقصد الا عتبة بيوت الاغنياء .»

واذ كان يشعر ان الحياة لم تحرمه شيئاً من افراحها قال: «ألست انا غنياً ؟ »

فأجابته اخته : «لست غنياً. نحن فقراء، وعلى والدنا ان يشتغل بكدّ وتعب . ولضيق ذات اليد لا استطيع ان اشتري لك ثياباً جديدة ، فأرى نفسي مضطرة ان ارقع مع جدتك ثيابك الممزقة.»

قال داني: «ما لنا وهذه الاشياء؛ احكي لي يا اختاه قصة الميلاد! احكي لي عن الطفل وعن البقر والنجم الكبير الساطع ... »

فبدأت أنيت تحكي القصة وداني يصغي اليها بشغف . ولما انتهت القصة قال: «لو كنت انا في محلهم لفضلت النوم فوق التبن على السكن في فندق . آه ما أحبّ الي ان انام مع بقرتي .»

فهزت أنيت رأسها قائلة : «كلا يا اخي ، ذلك لا يمكن. فالبرد

قارس ، ولا تقدر ان تنام دون لحافك الوثير وفراشك الناعم ... ان الناس الذين قالوا « لا مكان عندنا في المنزل المولود جديد » هم قساة القلوب لا شفقة فيهم .»

ما اكملت كلامها حتى سمعت الساعة تدق التاسعة ، فقفزت من السرير وقالت لداني : «الآن يجب ان تنام. وعليّ ان احضر شراب الشكولاته لوالدي» . ثم قبّلته وغطته باللحـــاف واطفأت القنديل وتركته . ولكن داني كان يتطلع في الظلام يفكر ويفكر ، ويقول في نفسه : لو حدث ان مرّ بابا نويل بعتبة بيتنا تلك الليلة الا يكون امراً مؤسفاً اننا غير مستعدين له ؟ صحيح ان زيارته لنا غير محتملة كثيراً بسبب فقر حالنا، ولكن هل نخسر شيئاً اذا كنا على استعداد ووضعنا الخفّ خارجاً ! جعل يفكر في المكان الملائم لذلك . كان يفضل ان يضعه على عتبة النافذة ولكن النافذة مقفلة بالحديد وهيهات له ان يفتحها ! وليس من المناسب ان يضعه خـارج الباب الامامي لئلا تراه العائلة الراقدة في الغرفة المقابلة للباب . فليس له سوى ان يضعه خارج الباب الخلفي الذي يفصل بين المطبخ ومخزن التبن والذي تراكمت عليه الثلوج . قد لا ينتبه بابا نويل للخفّ هنالك ، لكن لا مانع من التجربة ... فزحف داني من فراشه ومشى عـلى اطراف اصابعه ، وبكل خفّة خرج من الغرفة ونزل الدرج حافياً لئلا يشعر به احد . حمل بيده خفّه الصغير الاحمر المبطن بجـلد ارنب وظل يجاهد طويلاً ليفتح باب المطبخ لانه كان محكم السكر بقضيب خشبي كبير. ولذا استعان بكرسي صغير صعد فوقه وتمكن من فتح الباب . كان منظر الثلج في الخارج بهياً فوقف هنيهة يتأمله باعجاب، غير ان

الهواء القارس لذعه وكاد يغشى عليه ؛ فاسرع ووضع الخف جانباً واغلق الباب بسرعة . وعاد الى فراشه مطمئن البال والتف بالادثرة الدافئة . ومن قلبه الصغير تصاعدت هذه الصلاة الحارة : « ارجوك يا رب ، اجعل بابا نويل ان يمر وايائله من هنا ؛ واجعله ان يرى خفي الاحمر ، ويضع لي فيه هدية صغيرة ، رغماً عن كوني ولداً صغيراً فقيراً ». بهذا اطمأن داني وغرق في نوم عميق .

نهض صباحاً بكل هدوء دون ان يوقظ أنيت، ومشى الى المطبخ حيث وجد والده يسخن الحليب . ان اباه لم يشعر به الا عندما طوق ساقيه بذراعيه ونظر اليه قائلاً : «بابا ، هل رأيت بابا نويل ، لا بد انك رأيته وسمعت الاجراس ووقع حوافر الايائل على الثلج .»

اجاب الاب مرتبكاً : «بابا نويل ! لماذا ؟ كلا لم يأت الى هنا. نحن بعيدون جداً وهو لا يذهب الى الاماكن البعيدة .»

– «يا بابا ، ان الايائل لا تهمها المسافات . اظن انك كنت نائماً حين جاء ولذا لم تسمعه . افتح لي الباب فانظر، لعله ترك لي هدية.»

تحير الاب وتمنى لو انه علم بذلك سابقاً لكان وضع على الاقل قطعة من الشكولاته ، فلا يخيّب آمال ولده . وعلى كل حال ، كان عليه ان يفتح ذلك الباب ليمضي الى الاسطبل . وما ان فتحه حتى فرّ داني من بين ساقيه كالارنب الخائف وانحنى امام خفه على الثلج، فلم يتمالك ان صاح فرحاً ورجع الى المطبخ حاملاً خفه بيده. يا لها من اعجوبة ! بابا نويل اتى فعلاً وترك له هدية، وأية هدية ! ففي داخل الخف ، وجد قطة صغيرة بيضاء ، بعينين زرقاوين، ولطخة واحدة سوداء على انفها . قطة نحيلة هزيلة، لو لم تجد مأوى دافئاً لماتت من

البرد والجوع . حالما رآها الوالد جعل يعتني بها، فلفها بقطعة صوف دافئة ووضع قليلاً من الحليب الساخن في قصعة امامها وجعل يسقيها بالملعقة لكونها ضعيفة جداً . ما مضت بضع دقائق حتى انتعشت وجعلت تمد لسانها الوردي الصغير وتلعق الحليب، ثم اتسعت عيناها الزرقاوان ورفعت ذنبها . ولما شبعت لفّت جسمها كالطابة وجعلت ترسل خريراً هادئاً لطيفاً . وطيلة ذلك الوقت لم يفه داني ووالده بكلمة لانشغالهما واعجابهما بالقطة الصغيرة . اما الآن ، وقد تم عملهما بنجاح ، فجلسا ينظر الواحد الى الآخر . كانت وجنتا داني محمرتين كالورد ، وعيناه براقتين كالكواكب . فهمس قائلاً : كنت متأكداً انه سيأتي ، ولكني لم انتظر منه هدية جميلة كهذه . انها اجمل هدية حصلت عليها في مدة حياتي . واتجه نحو والده قائلاً: «ماذا ادعوها يا بابا ؟» فأجاب الوالد : « ارى ان اسم « ميمي » جميل .»

وعند الصباح اتت أنيت الى المطبخ لتعد الفطور، فذهلت عندما رأت داني بقميص النوم منحنياً امام قطة بيضاء . وقبل ان تفغر فاها لتستفهم عن ذلك وضع داني اصبعه على شفته مومئاً اليها بعدم التكلم لئلا توقظ القطة . ثم مشى نحوها بخفة واجلسها على الكرسي واعتلى ركبتيها ، وهمس مردداً على مسمعها جميع ما حدث . اما أنيت فلم تستغرب الحادث ، فهي مع كونها في الثانية عشرة فقط لم تكن تعتقد بوجود بابا نويل، بل كانت تؤمن بملائكة العيد. ولكن مما لا ريب فيه ان تلك القطة البيضاء كانت عطية نزلت من السماء . جلست أنيت على الارض واحتضنت داني وقطته . ولم تمض نصف ساعة حتى أتت الجدة لتشرب القهوة المعدّة على المائدة .

الفصل الثالث

كان لوسيان مضطجعاً في فراشه الوثير تحت لحافة المحشو بالريش الناعم . كم كان يتمنى لو يبقى في الفراش ! فالهواء في الخارج بارد واما فراشه فدافىء مريح ... طمر نفسه تحت لحافه وتظاهر كأنه لم يسمع نداء امه فنادته للمرة الثالثة : «لوسيان، انهض سريعاً وتعال». فقام وشرع يلبس وهو يدمدم ويقول : « بئس حالتي ! ان الاولاد الآخرين لا يحلبون البقر قبل ذهابهم الى المدرسة . هل من الضروري ان اشقى لأن ليس لي اب ؟»

ثم جلس يلتهم فطوره بسرعة . وفيما هو كذلك رجعت امه من الاسطبل ، ولما رأته جعلت توبخه قائلة : « ما بالك لا تسمع عندما ادعوك يا لوسيان ؟ طلبت منك مراراً ان تنهض باكراً لتساعدني . انظر كيف تنهض اختك باكراً وتعمل واجباتها بكل هدوء . انا اعلم ان الاولاد الذين لهم آباء لا يمارسون هذه الاعمال . بُنيّ لم يبق لنا سوى ثلاث بقرات ، ومعيشتنا كلها متوقفة عليها . انه لمن العار ان تترك عمل الصباح الباكر عليّ وحدي وانت كبير قويّ . »

فعبس لوسيان وهو يدمدم : «اني اشتغل حق في الليل ، وليس عندي وقت للّعب . اجلب الحطب من الغابة واصعد الى أعلى التل لكسح العلّيق ، وانظف الحظيرة كل يوم سبت .»

فقاطعته امه : «ان اكثر هذه الامور اعملها انا قبل ان تعود من المدرسة. لا انكر انه ليس لك وقت لتلعب في الشتاء كباقي الاولاد، ولكن الاعمال كثيرة وانا اعجز من ان اقوم بها جميعاً . ان الحلب وحده كافٍ لينهك عافيتي . لست صغيراً يا ولدي وعندك قوة كافية لتقوم بهذا العمل ، فعليك ان تنهض باكراً كل صباح دون تردد . والآن اسرع الى المدرسة لئلا تتأخر .»

فقال في نفسه : «ليس من العدل ان اشتغل في البيت واذهب الى المدرسة. لا لوم عليّ ان لم اتمم فروضي جيداً. اليوم تُقرأ العلامات، واظن اني سأكون الاخير هذه المرة ايضا وأنيت الاولى . وهل من عجب في ذلك ، فهي لا تحلب البقرات مثلي قبل ذهابها الى المدرسة . آه ...»

وهنا وصل الى مفرق الطريق ولم يكن يدري اين يذهب لما كان يجول في رأسه من هواجس . وحينما حاول ان يقف كان قد فات الوقت ، فاصطدم بغتة بزلاجة أنيت التي كانت سائرة بجانبه فقبلها ووقعت أنيت في حفرة على جانب الطريق .

اضطرب لوسيان واحمرت وجنتاه خجلاً واسرع لمساعدة أنيت على النهوض فبادرته بالنفور والصياح، وهي غائصة الى وسطها في الثلج فصاحت به باكية : «يا لغباوتك! ألا تنظر امامك فترى طريقك ؟

ها ان دفتري قد تلوث بالوحل وتمزق ، ولكن ساخبر المعلم بانك انت السبب .

واذ كان لوسيان حاد المزاج ثار ثائرة وصاح بها : لا بأس، افعلي ما بدا لك فلا يهمني امرك . انا لم اصنع ما صنعت عن قصد . ماذا جرى سوى ان دفترك العتيق تمزق قليلاً، ان تصرفكهذا يوهم الناس اني قتلتك . ما المصيبة اذا خسرت علاماتك هذه المرة ؟ على كلٍ ، سأدعك هنا واستمر في طريقي . ثم قفز الى زلاجته واسرع بها فوصل الى المدرسة قبل فوات الوقت. كان في ضميره وخزات ولكنه حاول ان يتناسى ما جرى فقال متمتماً: اردتُ مساعدتها فرفضت، فلتخرج من الحفرة ! وصلت اليوم في الوقت المناسب . اما يكفي جئت متأخراً مرتين في هذا الاسبوع .

لم يكن من السهل على أنيت ان تخرج من حفرة الثلج . كانت تجاهد للتخلص من تلك الورطة. ولما رأت يديها وركبتيها داميات، وثيابها ملوثة بالوحل انفجرت بالبكاء . بكت من الوجع والغيظ . وعندما دخلت المدرسة بعد تأخر ربع ساعة ، كانت عيناها محمرتين وانفها مزرقاً والدم يسيل من ركبتيها . كانت مشهداً محزناً كئيباً بكتابها الممزق ودفترها الملوث . واذ شاهدها المعلم قال بلهجة ملؤها الشفقة : ماذا حصل لك يا ابنتي ؟

احجمت أنيت عن اخبار المعلم بما جرى . غير انها عندما لمحت لوسيان جالساً مطمئناً في مقعده لم تعد تضبط اعصابها فانفجرت بغضب قائلة : ان لوسيان هو الذي صدمني ورماني في حفرة وتركني فيها ، ولم استطع ان اتخلص منها بسهولة .

وهنا غطت عينيها بأصابعها، وجعلت ترتجف وتبكي بحنق. عندما سمع التلاميذ هذا نظروا الى لوسيان باحتقار وغضب فطأطأ رأسه خجلاً وعاقب المعلم لوسيان على سوء تصرفه .

ولما قرئت العلامات كانت أنيت الاولى فزادها ذلك انتصاراً ، وكان لوسيان الاخير ففرض المعلم عليه ان يتأخر بعد المدرسة ليتمم واجباته. بقي لوسيان وحده بعد انصراف التلاميذ الى بيوتهم ، تغلي في صدره مراجل الغضب والحقد حتى كاد ينفجر .

اخيراً أُطلق سراحه فراح يصعد التل ويجرّ زلاجته وراءه . ما كان ابشع ذلك النهار ! فامّه اغتاظت منه في الصباح ؛ وأنيت اشتكت عليه ، والمعلم عاقبه ، وفوق كل هذا كان الاخير في صفه ! فهل من ولدٍ اتعس منه ؟

لاحظ بغتة انه ليس وحده في الطريق . ولما وصل الى المفرق ، كان بالقرب منـه على الثلج ولد صغير بوجنتين ورديتين وشعر اشقر وعينين براقتين في وجه مشرق يـدل على صحة وصفاء كان ذلك الولد داني الصغير وكان واقفاً يصنع تمثالاً من الثلج ، ويركز العينين في الرأس فخرج التمثال من بـين يديه على احسن مثال . وبينما هو على اهبة ان يذهب وينادي أنيت لـتراه ، لمح لوسيان ماراً وسأله قائلاً : لماذا تبكي يا لوسيان ؟

اجاب لوسيان بغضب : انا لا ابكي .

بلى انت تبكي، وانا اعلم السبب. أنيت قالت لنا ان المعلم ضربك.

لم يكن داني قاصداً ان يقسو عليه ، فهو لطيف طبعاً وحنون ،

ولكن اساءة لوسيان لأنيت صعبت عليه جداً . اما لوسيان فثار ثائره ورفس تمثال داني واوقعه محطماً على الثلج . فرفع داني صوته وصرخ صرخة الخيبة والرعب . وفي تلك الاثناء كانت أنيت آتية من الحظيرة فرأت ما جرى ، فهجمت كالنمرة المفترسة وصفعت لوسيان ، فرفع لوسيان يده ليقابلها بالمثل ، غير انه تراجع عندما رأى والدها عائداً من البيت وبيده الولد . فلم يجرؤ على ضربها ، واخذ يرشقها بكلام لاذع : يا دنيئة ... يا ثرثارة ... يا جبانة ... تأتين الى المدرسة باكية كالصغار !

فصاحت أنيت : يا لك من ثور شرس ... ! توقعني في الحفرة وتتركني فيها ، والآن ترفس تمثال داني المسكين . أي ضرر ألحق بك ؟ لماذا لم تدعه وشأنه ؟ انا مسرورة ان المعلم ضربك .

ثم اتجهت نحو أخيها وقالت : هيا داني اتبعني الى البيت .

وعند وصولها الى باب الدار لمحت بقعة وردية في السماء ، وراء الجبال البعيدة ، فتذكرت الآية التي علمتها اياها جدتها من الكتاب المقدس ، « لا تغرب الشمس على غيظكم » . فوقفت بغتة تفكر في ذلك القول الالهي ... لم يفت الوقت بعد ... فلوسيان لم يزل على الطريق ، وقد اساءت اليه وشكته الى المعلم . هنا ترددت ... ثم تراجعت ، تراجعت في قولها : كلا ، كلا ! لقد اساء اليها اكثر ! فعليه ان يأتي هو ويستغفر منها . اذا ذهبت اليه برهنت على انها هي المذنبة . كلا ، انها ليست مذنبة اليه . وبعد اخذ ورد دخلت واغلقت الباب بعنف وراءها .

تابع لوسيان مسيره الى البيت ببط ، وقد زاد غيظه ألم الصفعة. وفيما هو يمشي لمح امامه منظراً رائعاً : رأى غيوماً بنفسجية اللون متراكمة على بضعها وقد غطت الجبال التي وراء بيته ، وظهر بينها فرجة بانت من خلالها قمة جبل مغطاة بالثلوج اشرقت عليها اشعة الشمس الذهبية ، وكانت تظهر كأنها سور قلعة سماوية محاطة بمجد الله.

كان لوسيان قد اعتاد مشاهد غروب الشمس في ايام الشتاء ؛ الا ان هذا المنظر الخلاب اثر فيه فتأمله هنيهة وشعر براحة وسلام . ان ما أغضبه في ذلك النهار لم يكن سوى امر تافه. كم يكون جميلاً ان تعود المياه الى مجاريها . وما دامت أنيت على مقربة منه فلماذا لا يركض ويصل اليها ؟ هنا توقف ثم نفر قائلاً : «لا ، لا اريد .. ان ان أنيت متعجرفة ! وقد لا تلتفت الي ! ثم ، ماذا ، هل يُقدّم اعتذاراً لبنت !

وهكذا لم يرد احد منهما ان يبادر الآخر باستغفار ، فتمكنت جذور الخصام في قلبيهما واستمر اياماً كثيرة فكان سبب تعاسة لكليهما . وفيما كان لوسيان واقفاً يتأمل مرت سحابة وغطت ذلك المشهد فاختفت المدينة السماوية عن العيان .

الفصل الرابع

يقع عيد مولد أنيت في شهر آذار واستعد له داني قبل اسابيع . لم يكن شيء احب اليه من تقديم الهدايا بمناسبة العيد . قد يستخف بها الناظر اليها ، ولكنها بالنسبة لداني جميلة جداً . وقد خبأ هذه لهدايا في مكان لا تصل اليه العيون .

وفي اليوم السابق للعيد اسرع داني الى جدته ، وهي تجهز بعض الخضار للشوربا ، فقال لها : يا جدتي اريد ان اصعد الى الجبل حيث ذابت الثلوج ، فالتقط بعض الزهور لعيد انيت. سأضعها على المائدة وقت الفطور مع باقي هداياها .

فقالت : انت ما تزال صغيراً ، فلا يمكنك ان تذهب الى الجبل وحدك . المنحدرات زلقة واخاف ان تسقط في احدى حفر الثلج . فقال : على مَ الخوف يا جدتي وميمي معي ؟ فهمهمت الجدة قائلة : وما المنفعة من ذلك ؟ وفجأة صرخت مرتعبة لأن ميمي قفزت الى حضنها دون ان تنتبه اليها وجعلت تحك رأسها الابيض بها وترسل

خريراً ناعماً: فقال داني: عرفت ميمي باننا نتكلم عنها وكأني بلسان حالها يقول : لا تخافي على الولد فسأعتني به .

ثم حملها وقبّل جدته وانطلق فرحاً يغني . وظلت الجدة تصغي الى النغمات الشجية ، وتنظر الى الولد الصغير وهو يتسلق الجبل ، حتى اختفى عن الانظار . فارسلت تنهداً وعادت الى عملها تفكر في نفسها وتقول : لقد اجتاز سن الطفولية واصبح صبياً . بعد قليل يدخل المدرسة ...

ما زال داني يتسلق الجبل وميمي تنتقل وراءه في كثير من الحذر ؛ فهي مع كونها من مواليد الشتاء تكره الثلج كثيراً . كان النهار رائعاً ساطعاً ، والربيع قد كسا الجبل حلة بهية واذاب الثلوج عن المنحدرات واخضرت السهول عند جانبي النهر في الوادي ، واخذت المواشي تسرح في المراعي الخضراء .

استمرت ميمي تنتقل في طريقها حتى وصلت الى قمة جدار من الحجارة يشرف على جانب من الحقل . وكان على الجانب الآخر واد ضيق وعر يتفجر من اسفله سيل صاخب والوادي كالروضة الغناء مكسو بازهار البرية الزاهية الالوان . على هذا الجدار جلست ميمي تتشمش بعد ان غسلت شعرها الابيض الطويل .

اما داني فكان يتجول على الجبل يلتقط الزهور البرية التي كانت قد شقت الثلوج . وسمع وقع خطوات خلفه واذا لوسيان يرشقه بنظرات قاسية اذ لم ينس الضربة التي وجهتها اليه أنيت . لم يكن بحسبان لوسيان ان يؤذي طفلاً كهذا، بل اراد ان يناكده ويختطف الزهور منه فسأله مستفهماً:لمن تقطف هذه الزهور؟فأجاب: لأنيت.

كان داني يعرف ان قلب لوسيان مشحون بالبغض لأنيت ، غير انه ابى الا ان يتكلم الصدق كما علمته انيت .

واسترسل لوسيان في ضحكة ملؤها الهزء والحقد ثم قال : اني اكره أنيت . انها متعجرفة ، معجبة بنفسها وغبية . اصغر طالب في المدرسة يفوقها في علم الحساب . كل معرفتها لا تتعدى بقراتها . اعطني هذه الزهور ...

ان هذا الكلام البذيء القارص اثر في داني الصغير تأثيراً شديداً فقال في نفسه: «كيف يمكن ان يكره احد أنيت ! انها مثال حسن الاخلاق ، كاملة الخصال ، جميلة ، حكيمة ، مدبرة ، نشيطة ...» ولكن داني يجهل شرور الحسد ولذا تعذر عليه ان يدرك مرمى كلام لوسيان . وامسك بباقة الزهور يضمها الى صدره بكل قواه وقال : لن اعطيك الزهور ابداً، فهي لي . فقال لوسيان متهكماً : سآخذها قسراً . انت طفل ، وتحاول المقاومة والمعاندة ؟ انت ثرثار تحب الوشاية والنميمة ! الآن آخذ بثأري منك ، فتعلم من انا ...

قال هذا وباسرع من لمح البصر انقض على داني واختطف منه الزهور وقطعها وداسها على الارض . فصاح داني باعلى صوته وراح يبكي ويولول . وهم بالهجوم على خصمه ليضربه بجمع يده ويلكمه صارخاً : سأخبر والدي . الآن أعود الى البيت وأخبره فيضربك . يا لك من ولد شرير شقي !.

سمع ذلك لوسيان فثار ثائره ، لانه كان يرهب والد داني الذي كان طويل القامة ، قوي البنية كالجبار. هاج لوسيان وماج، وامسك

داني بذراعه وهزه بعنف شديد . وفي تلك الاثناء وقع نظره على القطة ميمي فخطر على باله خاطر ! فدفع عنه داني واسرع نحو القطة الى الوادي .

ظن داني انه قد تخلص من لوسيان ، فمسح عينيه ونحنى يلتقط زهوراً جديدة باسرع ما يمكن . ان مائدة أنيت يجب ان تتزين مهما كلف الامر .

انطلق صوت لوسيان في الفضاء ينادي ، وهو قابض على رقبة ميمي : أترى هذه القطة؟ أترى الوادي السحيق وهذه المياه الغزيرة؟ ان لم تأت الي الآن وتعدني بانك لا تقول شيئاً لوالدك رميت القطة هذه في النهر !...

فاسرع داني يركض على الصخور الزلقة ليخلص قطته ، فكان يعثر وينهض،ويقع ويقوم. ان منظر قطته معلقة بيد لوسيان الشرس قد القى الرعب في قلبه حتى لم يعد يستطيع ان يصرخ .

لم يقصد لوسيان ان يرمي القطة في النهر البتة.وما قاله فهو مجرد تهديد حتى يتخلص من شكوى داني عليه . اما القطة فاذا لم تتعود ان تُمسك بهذه الصورة ، جعلت تعارك بارجلها بشدة وتموء وتنفخ ، وابرزت مخالبها وخمشت لوسيان بشراسة وافلتت من يده فوقعت في الوادي . علقت بشق صخرة وجعلت تموء مستغيثة . فما كان من داني الا ان رمى بنفسه نحوها ؛ ولكنه لصغر سنه لم يتمكن من التمسك بالصخور الزلقة ، فزلت رجله وسقط الى الاسفل فصرخ صرخة مريعة ظلت ترن في جنبات الوادي ، وترن في اذن لوسيان

الذي هاله الأمر ، فتسمر في مكانه ذاهلاً مروعاً : «داني قد انجرف مع التيار وغرق ... » فجمد الدم في عروق لوسيان !

حينئذ انسل الى زاوية في الحقل وكوم جسمه على العشب واضعاً رأسه بين يديه وشرع يندب سوء فعلته . وبعد برهة استفاق من وهلته، وقال في نفسه: لا احد يعلم ما حدث، ولا احد يعلم بالجريمة، فلِمَ لا الوذ بالهرب واعود الى البيت وكأن شيئاً لم يكن؟ وجعل يعدو الى بيته . وحين وصوله الى الباب الخلفي تردد في الدخول خوفاً من ان تلاحظ امه على ملامح وجهه امراً غريباً فتستطلعه الخبر. وكانت اسنانه تصطك رعباً ، وكان في حيرة عظيمة. اخيراً صعد الى حيث كانت اكداس التبن واستلقى فوقها ، واستسلم لليأس والبكاء .

الفصل الخامس

لما انتهت الجدة من تحضير الخضار شعرت بتعب، فقامت مستعينة بعصاها ودخلت البيت وجلست على كرسيها ، ونكست رأسها على صدرها واستسلمت للنوم . وطال نومها أكثر من العادة . أما أنيت فقد ذهبت الى السوق لشراء بعض الحوائج ، وكان الأب قد ذهب الى الغابة يحتطب .

لم تستيقظ الجدة من نومها العميق الا نحو الساعة الرابعة فهبت مرتعبة قائلة : لقد ترك داني البيت في الساعة الثانية والنصف وحتى الآن لم يعد ، فأين هو يا ترى ؟ نادته بقلق كأنه بجانبها: « داني أين انت ؟ » . قد يكون مختبئاً في الخزانة كعادته ، ولكن لم يكن من مجيب . فقامت الى الشرفة متوقعة ان تراه قادماً ، لكنها لم ترَ احداً .

بعد قليل شاهدت شخصاً آتياً من وراء الحظيرة ؛ واذا بأنيت حاملة سلتها على ظهرها . وكانت تلوح بيدها الى جدتها .

فبادرتها الجدة قائلة : «اسرعي يا أنيت، انزلي السلة عنك واذهبي ابحثي عن اخيك الصغير؛ فقد خرج منذ ساعة ونصف ليلتقط بعض الزهور ولم يرجع بعد . »

فانزلت أنيت السلة وأجابت: «وأي خوف على ولد كداني، فهو محبوب عند الجميع . أظن انه مع والدي في الغابة . دعيني آكل فقد نال مني الجوع ، وبعد ذلك اذهب وافتش عنه . »

وأخذت كسرة خبز ودهنتها بالمربى وبدأت تأكل . اما الجدة فعادت الى الشرفة تنظر بقلق . بعد هنيهة سمعت صوت اقدام ثقيلة آتية الى البيت ؛ انه الأب راجع من عمله . فسألته الجدة باهتمام : «أين داني ؟ ألم يكن معك يا بطرس ؟ هل التقيت به على الجبل ؟»

ـ « داني ! لم أره اليوم قط . متى غادر البيت يا امي ؟ »

عندئذ لم تستطع الجدة اخفاء بالغ اهتمامها ، فجعلت تفرك بيديها مولولة مرددة : « قد خرج منذ ساعتين ... ذهب مع قطته ... ذهب ليلتقط بعض الزهور ... آه ! ماذا حصل له ! »

تبادل الوالد وابنته نظرات ملؤها الأسى والقلق لأن طريق الغابة تؤدي الى الحقل فكان لا بد للأب ان يلتقي بابنه لو كان هناك . وأمسكت أنيت بيد والدها وقالت: «أظن ان داني يتجول في الغابة ليأتي معك . دعنا نذهب ونفتش عنه . لا بد ان نلتقي بميمي، فهي لا تحب المسافات البعيدة ، وهي ترشدنا اليه . »

فسارا معاً في الغابة صامتين . حرص الأب ألا يعرب عما يختلج في صدره من هواجس . ان فصل الربيع في سويسرا يأتي

ببعض المهالك على الجبال ، ففيه تفيض الأنهار وتهوي قطع الثلج من القمم ، وما داني الا ولد صغير .

دخلت الجدة حجرتها واختلت بنفسها وجثت تضرع الى الله من اجل حفيدها . وفيما هي كذلك تراءى لهـــا منظر تنبهت اليه ، وكأن ضعف بصرها قد زاد من بصيرتها الروحية . تراءى لها منظر غابة مظلمة محاطـة بسيول متفجرة من الصخور ، مسالكها وعرة ومسدودة بكتل من الثلج . ثم تراءى لهـــا داني يركض على احد المسالك ، حاملاً بيده زهوراً . وشاهدت ملاكاً سائراً بالقرب منه مظللاً اياه بأجنحته البيضاء ودافعاً عنه كل أذى وخطر . فتذكرت الجـــدة قول الرب يسوع : « ان ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه ابي الذي في السموات » . فنهضت وقد شاع في قلبها الهدوء والاطمئنان واخذت تعد طعام العشاء .

لم يكن اثر لداني وميمي في الحقول او في الغـــابة . كان الأب وابنته يفتشان عنه وينادیانه ، ولكن لم يكن ثمـة مجيب الا صدى اصواتهما وخرير النهر. فقالت انيت: «يا والدي، قد يكون ذهب الى بيت لوسيان ؛ لقد شاهدته مرات يتحدث معه . سأهرع اليه حالاً واسأله...» وانطلقت تعدو، وبأقل من خمس دقائق كانت عند باب السيدة موريل فوجدته مفتوحاً. واطلت منه ونادت بلهفة: «سيدتي! لوسيان ! هل من احد في البيت ؟ أرأيتم داني ؟»

لم يكن من مجيب . وتلفتت يمنة ويسرة فلمحت السيدة موريل آتية فأسرعت اليها وأمسكت بيدها وقـالت : « ترك داني البيت

منذ ساعتين ولم يرجع حتى الآن . هل رأيته ، أيكون مع لوسيان؟ أين لوسيان » ؟

أجابت السيدة مقطبة : « لا أعلم أين لوسيان ! لقد تعبت وانا افتش عنه . ذهبت الى بيتكم لاستخبركم عنه فلم أحصل على أي خبر. يا له من كسلان ! كان عليه ان يحضر للاهتمام بالبقرة . »

ـ « هيا بنا الى الحظيرة ، فقد يكون سبقنا اليها . »

ومضتا الى الحظيرة فوجدتا البقرة تقرع بذنبها كالسوط وتلبط بأرجلها متضايقة. ولكن لوسيان لم يكن هناك... فتحولت السيدة بغيظ وأوشكت ان تغلق البـاب فأمسكتها أنيت بكمها وهمست قائلة : « اصغي ! ما هذا الصوت الخافت ؟ اتنهد أم انين ؟ »

وفي لحظة صعدت أنيت كالقطة البرية والسيدة موريل تتبعها وكل واحدة تفكر في من يخصها . واذ لحظت الام ولدهـا قالت بلهفة : « لوسيان ولدي ! ماذا جرى لك ؟ »

وبادرت أنيت تهزه قائلة: «أين داني؟ماذا فعلت به؟ ارجعه حالاً.»

فارتعد لوسيان كمن اصابته نوبة عصبية، وقال بصوت متقطع : « لا اعلم ... اين ... هو . ليس الذنب ذنبي » .

فدوى صوت البنت كالرعد وجعلت تهز لوسيان بعنف وتقول : «انك تعلم اين اخي! فقل الحقيقة ، لا تنكر ولا تخترع الاكاذيب ! سيدتي ، هلا تحملينه على الاقرار بالحقيقة !.. »

فتقدمت امه وابعدت أنيت قليلاً ، ثم انحنت اليه ترتجف رعباً،

لانها ايقنت ان ابنهـا يعلم ما حل بداني من الأذى . فرفعت رأسه بيديها وسألته بحزم : «لوسيان: اخبرني حالاً وسريعاً ، اين داني ؟»

فتفرس فيها لوسيان وايقن ان لا مفر له من كشف امره وقال : «مات داني !» ثم اخفى وجهه بالتبن وجعل يشهق ويبكي .

جمدت انيت في مكانها وشحب وجهها وكاد يغشى عليها. وسرعان ما طوقتها السيدة موريل بذراعيها الا انها نفرت منهـا وخاطبتها بصوت ابح يختلف جداً عن صوتها المعتاد: «يجب ان يدلنا على المكان حتى يذهب والدي ويحمله الى البيت . وبعدئذ.. سأغتال لوسيان!»

لم تكترث السيدة لتلك العبارة الاخيرة. ولكن ما طلبته انيت كان حقاً وصواباً ؛ فجرّت ابنها وانزلته الدرج وهي تقول: «اسرع يا لوسيان ، دلنـا على داني ، والا فيأتيك والده بالشرطي ويأخذك الى السجن . »

كان هذا التهديد كافياً لأن يجعل لوسيان يهرول عدواً الى الجبل، تتبعه امه وأنيت وهو يشهق ويردد عبارته السابقـة : ليس الذنب ذنبي . اما أنيت فكانت تسكب الدمع السخين . ولما وصلوا قرب الحائط اشار لوسيان الى الوادي هامساً خائفاً : « هناك وقع ؛ قد غرق في النهر ! » واستلقى على العشب يبكي ...

في تلك اللحظة ظهر الأب عند طرف الغابة ، واسرع نحو الجمع دون ان يفوه بكلمة . القى نظرة الى أنيت ثم الى الصخور وقد لمح ما لم يلاحظه احد منهم : رأى قطة بيضاء ترتجف على حافة الصخر. فبرقت فكرة في دماغه وقال: «يجب ان اسرع بجبل.» وانطلق الى البيت كأن حيواناً شرساً يتعقبه .

كانت الجدة تنتظر عند الباب، فقرأت على ملامحه سطور المأساة. نظرت اليه صامتة وهو ينزع عن الحـــائط حبل التسلق . ثم رأته مهرولاً بين الادغال . وبغتة صرخ كالمجنون : « في الوادي! » وتابع سيره راكضاً .

اسرعت الجدة تعد ما يلزم للحادث ، فأحضرت الماء الساخن في وعاء للتدفئة ولفته بخرق من كتان . ثم ملأت الابريق ماء ووضعته على النار وجلست تنتظر . ضمت يديها واغمضت عينيهـا وباشرت بالصلاة . وفيما هي على ذلك تراءى امامها داني عالقـاً بين صخور الوادي واجنحة الملاك البيضاء تظلله . ثم رأت هذا الملاك قد انتشله وحمله سالماً بين ذراعيه ، فرددت فقرة الكتاب المقدس قائلة: «يوصي ملائكته بك » . ثم مشت الى سرير داني تدفىء فراشه واغطيته . وصل الأب الى مكان الحادثة المفجعة بأسرع ما يُنتظر، وعقد طرف الحبل بجذع شجرة قريبة والقاه على كتفيه، ثم تمسك به بيديه وركبتيه والقى بنفسه في الهوّة على الصخور الزلقـة ، واختفى في الوادي . جال بنظره في ذلك المكان المخيف حيث المياه تتفجر جارفة امامها كل عائق... قد يكون السيل العاتي قد جرف ايضاً ولده في التيار. سرعان ما فاجأه مشهد بعث في قلبه ذرة من الأمل ، فخرجت من بين شفتيه صرخة رجاء . ان ما شاهدته الجدة قد تحقق ، فالملائكة قد اعتنوا بداني حين وقع ، لانه لم يسقط في الماء كما كان من البديهي ان يحدث بل علق بصخرة واستلقى على ظهره وقد التَوَتْ رجله تحته حتى انـه لم يتمكن من الحراك ، فكان يصرخ منتظراً من يخلصه .

ولما طال الوقت وهو على تلك الحالة تخيل انه نائم ولم يعد الى وعيه الا بعد ان حلق فوقه والده كالنسر المشتاق الى فراخه وحط بجانبه على الصخر . اذ ذاك صحا وهمس لوالده : « بابا اين ميمي ؟ »

فقال: «ها هي فوقك على الصخرة. سنأخذها معنا عند رجوعنا.»

— «بابا ان رجلي تؤلمني، لا أقدر ان احركها. افلا تحملني الى البيت؟»

— «طبعاً ! ولهذا اتيت، سأحملك حالاً. ثم رفع ولده بين ذراعيه وتفرس فيه . »

— « لكن بابا ! ايمكنك ان تحمل كلينا ، انا وميمي ؟ ارجوك ان لا تترك ميمي وحدها لأن الوقت حان لتشرب الحليب ولا شك انها عطشانة.» فرد الوالد: «سأضع ميمي في جيبي.» قال هذا ثم اخذ يرفع ابنه بتؤدة وعطف ، وداني يئن من شدة ألمه .

خلع الاب معطفه ولف به ولده ثم حمله بكل تأنٍ الى البيت بمساعدة السيدة موريل . وكانت انيت تتبعهم وهي حاملة ميمي . كان الموكب محزناً ، بيد ان قلوب الجميع كانت دافقة بالشكر على نجاة داني ...

الفصل السادس

كان داني مضطجعاً في سريره الصغير ملتحفاً بالاغطية الدافئة . وكم سُرّ بأن يرى الجميع يغدقون عليه العناية والعطف ، ويقومون على خدمته وتلبية رغباته !

وفتح داني فمه كفرخ طائر يلتهم ملعقة ثانية من المربى فقال : «ان لوسيان هو الذي رمى ميمي وراء الحائط. اما كان ذلك قساوة منه يا بابا ؟ »

— «انها لقساوة بربرية ؛ ولا بد ان يعاقب عليها .»

كان الأب مسروراً للغاية بنجاة ولده حتى انه لم يفكر بلوسيان. اما أنيت فكانت تفكر في نفسها وتقول: «لن اصفح عنه ما حييت! سأنتقم منه يوماً ما ولن اصفح . وهنا صاح داني قاطعاً عليها سلسلة حقدها فقال : «غني لي يا أنيت حتى انام . غني لي تلك الترنيمة التي علمتني اياها جدتي . اني احب الترنيمة كثيراً .»

كانت تلك الترنيمة صلاة للآب السماوي ليغفر الذنوب ويحفظ الاولاد تحت ظل جناحيه في اثناء الليل . كم من مرة غنتها انيت

سابقاً ! غير انها رفضت ان تغنيها هذه الليلة . كيف يمكن ان تذكر غفران الذنوب وقلبها مملوء حقداً على لوسيان وانتقاماً منه ؟

فقالت: «بل اغني لك ترنيمة اخرى . وانا اعلم ان هذه الترنيمة ستطربك جداً وتؤثر فيك كثيراً.» وما زالت بصوتها الناعم الحنون ترسل انغامها الشجية ، واخوها ينصت وينصت ، حتى ثقل النعاس على جفنيه فاستسلم للنوم .

فقالت : « هوذا داني قد نام . فلأقترب من الموقد لاستدفىء .»

وبعد لحظات اذا بالجدة تدنو ايضاً من الموقد وتقول : « أنيت ، قد يحضر الطبيب بعد قليل ، فنضطر ان نوقظ داني .»

فقالت انيت : « يجب ان يعاقب لوسيان . ولكن كيف ؟ ليس لديّ عقاب كاف لعمله الشرير هذا . »

امسكت الجدة هنيهة عن الجواب ثم اجابتها بلطف وحنان : « الا تظنين يا انيت اننا عندما نخطىء ننال عقابنا من نفس الخطيئة دون اي تدخّل من الخارج ؟ تأملي رعب لوسيان حينما رأى داني يهوي، وحزنه وكآبته طول الليل ، وخجله واحتقار الناس له حينما ينظرون اليه شزراً ، وشعوره بأنه لا يستحق العفو ... »

لم تكترث انيت لما قالته الجدة الا عند سماعها عن خجله واحتقار الآخرين له . هذا كل ما اعجبها من كلام جدتها . ستخبر الجميع عن فعله ، ستذيعه في المدرسة وفي القرية حتى يكرهه الكل .

وفيما كانت انيت تغلي حقداً وتشفياً تنبهت لقرع شديد على الباب . واذا اخت لوسيان الكبيرة تدخل وهي تلهث من التعب .

كانت قد شاهدت من بعيد المركب الصغير وهو راجع بداني فاسرعت الى مركز الهاتف لتدعو الطبيب ففاجأتهم بقولها : « ان الطبيب لا يمكنه ان يأتي ، فقد ذهب الى قرية اخرى لمعالجة امرأة ، ولن يرجع قبل منتصف الليل. ويقول الناس ان اوفق حل هو ان ترسلوا داني بعربة الى المستشفى غداً صباحاً فيراه الطبيب هنالك . » قالت هذا ثم سألت بصوت خافت : « اخبريني يا أنيت ! كيف حصل الحادث ؟ لماذا كانت امي صامتة مضطربة ؟ »

فأجابت أنيت بايجاز : « ان اخاك لوسيان رمى بقطة داني في الوادي ، فحاول الولد ان ينقذها. ولم يحاول لوسيان البتة ان يوقف داني او يمنعه عن النزول . بل لا يخامرني شك في انه دفعه فأوقعه . اظن ان رجل داني مكسورة لانه بقي عالقاً في الصخور ساعات ، ولوسيان تجاهل ذلك ولم يعلم احداً . »

فاصفر وجه ماري هلعاً لما سمعت . وباتت تقول في نفسها : «لو كنت قد حملت في قلبي لأخي المحبة الحقيقية والحنوّ الاخوي ، لما بلغ هذا الحد من القساوة والطيش.» ثم قالت غاضبة : «يجب ان يعاقب بشدة ، وسوف انظر في ذلك بنفسي . » ومضت .

فشعرت انيت في قلبها ان اهل لوسيان وذويه بدأوا ينقلبون عليه . ومضت الى غرفة النوم واستلقت على سريرها قرب النافذة ، ولكن لم يزر النعاس اجفانها . واحست بوحشية غريبة . وبينما هي

كذلك سمعت وقع اقدام ثقيلة على الدرج ، ورأت جدتها تدخل الغرفة وتقترب منها ، ففتحت لها ذراعيها بشوق صارخة « جدتي » واجهشت بالبكاء . فجلست الجدة على سريرها دون ن تتكلم ، وجعلت تمرّر يدها على جبهة أنيت حتى توقفت عن البكاء، ثم قالت : «اسمعي بنيتي ! عندما كان داني طفلاً اخذناه الى الكنيسة وبالايمان سلمناه للمخلص. ومنذ ذلك الوقت ونحن نطلب من الرب ان يحفظه. وعندما وقع كانت اذرع الرب تحمله سالماً . حتى ولو قتل ومات فالرب يأخذه اليه ويستقبله في السماء . ولذا دعينا نمسح دموعنا متكلين على الرب ليعتني به ويفعل به ما يشاء .»

ـ «ولكن لماذا سمح الرب للوسيان ان يلحق به الأذى؟ آه يا جدتي، اني ابغض لوسيان ، وكم اود لو اقتله ! »

ـ « اذا كان قلبك مشحوناً بهذه العواطف فلا يمكنك ان تصلي لأجل داني . ان الله محبة وعندما نصلي نقترب الى المحبة فتضمحل البغضاء فينا وتذوب، كما يذوب الثلج تحت اشعة الشمس في الربيع. اتركي لوسيان للرب يا أنيت ، فهو يجازي الخير والشر . لا تنسي ان الرب يحب لوسيان كما يحب داني .»

ورسمت الجدة قبلة على جبهة أنيت وذهبت . وظلت الابنة تفكر في كلام جدتها، وصعب عليها ان تصدق العبارة الأخيرة. كيف يمكن للرب ان يحب ولداً شريراً غبياً كلوسيان، بقدر ما يحب داني الولد اللطيف المحبوب...ومع ذلك فهي تقر بأن لا حق لها ان تصلي لأجل داني ما دامت البغضاء كامنة في قلبها . المحبة والبغضاء لا تتفقان .

وكانت تحاول ان تصلي لأجل داني فتشعر بالبغضـــاء تضمحل من قلبها ، وهذا ما لا ترغبه . يجب ان تنتقم منه قبل ان تصفح عنه . على كل لا بأس ان تصلي الجدة لأجل داني . امـا هي فسوف تدبر خطة للأخذ بالثار .

وبينما كانت غارقة في تأملاتها سمعت داني يصرخ بغتة « ميمي ؟ اين ميمي ؟ قد سقطت في النهر » . فأسرعت أنيت اليـه وطمأنته قائلة: «ها هي هنا». وبالحقيقة كانت ميمي تخر عند قدميه. فوضعتها امامه فعانقها ، ثم استغرق في النوم والقطـة متمددة على صدره . ولبثت أنيت بقربه حتى بدأ يتنفس بهدوء وسلام .

اذ ذاك صعدت الى سريرها ونامت هي ايضاً .

الفصل السابع

ان لوسيان ايضاً استلقى على فراشه لينام ولكن ، كلما حاول ان يغمض عينيه تراءى له داني هاوياً من الصخور الى وهدة مظلمة لا قعر لها . وبين فترة واخرى كان يغفو فيبصر احلاماً مرعبة فيمتلىء صدره ذعراً ويشعر بوحشة شديدة .

وتمنى لو تأتي امه اليه ! لقد سمع وقع خطواتها حين رجعت الى البيت ... لماذا لم تأت اليه ؟ هل قصدت ان تتركه وحده جزاء فعلته الشنعاء ؟ . . . ولكنه لم يملك الجرأة ان ينادي امه او اخته خوفاً من تقريعها واتقاء قارس كلامها .

وجعل يفكر في الغد ويقول في نفسه : « غداً اذهب الى المدرسة وتكون أنيت قد اذاعت الخبر على مسامع الجميع فامسي مضغة الأفواه ينفر مني الطلاب ويكرهون معاشرتي . . . يا لتعاستي ! »

وفجأة سمع وقع اقدام على الدرج ، فنهض جالساً على فراشه . ودخلت امه فمدّ ذراعيه نحوها وجعل يبكي ، ولكنها لم تحفل به بل جلست على سريره عند الرجلين صامتة مقطبة الجبين تراقبه .

ان احشاءها تحن عليه ، وكم تتمنى ان تسكب على قلبه المروع عزاء وتشجيعاً ولكنها تخاف جداً: تخاف ان يكون داني قد اصيب بأذى شديد ، وتخاف من ان يلاحقهم الأب امام القانون ، وتخاف ان يكون المبلغ المتوجب عليها دفعه باهظاً ... ثم، اليس من واجبها ان تعاقبه ؟

ولكن غاب عن بال تلك الام انه لم يعد من الضروري معاقبة ابنها. فالرعب والحزن والوحشة التي انتابت ابنها هي نفسها عقاب وأي عقاب ! غفلت عن كل هذا لقلة فطنتها، واتجهت نحوه وانهالت عليه بالتقريع اللاذع: «يا لك من شقي ! الى أين ستقودنا افعالك الشريرة؟ ان اصاب الولد ضرر فلا شك انه سيتحتم علينا عندئذ ان نقدم النفقات، وهذا ما لا نقدر عليه . قد تلاحقنا الشرطة ، وهذا كاف ليجعلك تخجل من عملك . »

لم يكن من عادة لوسيان ان يسكت ازاء التقريع ، لكنه هذه المرة لم يرد على تأنيب امه مما اثار فيها الاستغراب .

حينئذ انحنت عليه بعطف وقالت : « لا بأس يا بُنيّ ، لنا أمل في المستقبل . غداً نذهب الى بيت الجيران وتعتذر لهم لعلهم يصفحون عنك . »

انتظرت منه جواباً ولكنه لم ينبس ببنت شفة . فتركته لحظة ثم عادت اليه بطاسٍ من الشوربا . لم يكن باستطاعتها ان تعزيه وتهدىء روعه ، فلا أقل من ان تطعمه . تناول الطاس منها ولعق لعقتين ثم دفعه عنه لأنه غص باللقمة ولم يستطع ان يبلعها ، فغطى

وجهه بالمخدة وجعل يجهش بالبكاء ذليلاً كسير القلب . فحارت امه في امرها ولم تدر ما تفعل. فأسندت رأسه بلطف الى المخدة وانتظرت ريثما هدأ بكاؤه فانسلت من الغرفة وتركته وحده في الظلام .

عندما استيقظ في الصباح لم يكن يذكر شيئاً مما حدث بالأمس ، ولا عرف سبب الألم برأسه والحمى الشديدة التي اثقلت عينيه . تنبه بغتة لما فعل فهاجت افكاره ، خاصة عندما فطن الى انه سيذهب الى المدرسة ويقابل الاولاد . قد يموت داني في الليل فيقع كل اللوم عليه . لا، انه لن يذهب الى المدرسة ! سوف يختبىء في غابة الصنوبر كل النهار ، ويرجع الى البيت في المساء ، ولا احد يعرف عنه شيئاً. امه نفسها ستظن انه ذهب الى المدرسة . من سيسأل عنه ؟ لا أحد. سيكشف امره بعد حين ، لا بأس . همه الآن ان يتخلص من هذا النهار فقط. لعل داني يشفى فينجو هو من تلك الورطة. قال هذا في نفسه وجعل يجري بأسرع ما يمكن ، الى ان اضحى في بقعة مظلمة بأشجار الصنوبر، وهو يلهث من التعب، فجلس يستريح وكان الوقت لم يزل باكراً ، والمدرسة لا تبدأ قبل الساعة السابعة والنصف كعادة المدارس في سويسرا . عندئذ شعر بأمان وطمأنينة وهدأ روعه .

حار لوسيان فيما يعمله طول النهار . لم يكن لديه طعام لأن المدرسة تقدم طعام الغداء للتلاميذ . تمدد على الحضيض واستغرق في نوم عميق. مرت الساعات سريعاً وتكبدت الشمس السماءَ وأخذ الجوع ينهش لوسيان . ولكن كيف يتهيأ له الغداء وهو في الغابة ؟ فنهض وبدأ يتجول في الجبل لعله يرى احد الفلاحين فيعطف

عليه ويقدم له شيئاً من الحليب . فتش جيوبه فعثر فيها على سكين صغير . فجلس على جذع مقطوع ملقى على الأرض وأخذ قطعة خشب صغيرة وجعل يحفر فيها بسكينه . لقد مارس الحفر مراراً قبل اليوم ، غير انه لم يكن يهدف الى شيء خاص . واذ كان لديه متسع من الوقت اراد ان يصرف الساعات في عمل ما ، وصمم ان يصنع من الخشب غزالاً .. باشر عمله وهو يهيىء قطعة الحطب بين اصابعه بشكل حيوان . طار لبه فرحاً ، ولأول مرة بعد الحادث المشؤوم ، نسي تعاسته وهمومه .

انغمس في عمله وتابعت اصابعه مخيلته فظهر رأس الغزال يعلوه قرنان جميلان معقوفان، وبدأ الانف يظهر في الوجه، وانتصبت اذن كأنها تسمع بوق الصياد، ثم ظهرت اربع حوافر نحيفة وجسم مستعد للفرار . رفع لوسيان الغزال بيده متأملاً وقد راقه صنعه ودهش من براعته في هذا الفن . كان عمله شبيهاً دون شك بالحيوان المقصود . حينئذ اطمأن باله ووثق من نفسه ... رغماً عما يقوله الناس عنه فهو كفء قادر ان يتقن شيئاً على الأقل. لن يهمه نفور الاولاد منه، بل سينفرد بنفسه ويحفر ما يريد . وبهذا يتناسى كل تعاسته وشقائه .

ومن مكانه اطل على الوادي فرأى الاولاد يركضون الى جميع الجهات ، فعرف حينئذ انهم منصرفون الى بيوتهم . فخاطب نفسه قائلاً : «لا بأس ! سأنزل بعد ربع ساعة فلا يعرف احد عني شيئاً». وانتظر قليلاً ريثما تؤذن الشمس بالمغيب . بدأت الريح الباردة تهب في الغابة ، والظلمة تخيم على الأشجار البعيدة ، فشرع لوسيان ينزل الى البيت ويده قابضة على الغزال صنعة يديه الماهرتين .

واجتاحت نفسه غمرة من الحزن اذ عاد المشهد المؤلم يرتسم امام عينيه : الحادث المفجع كان يتراءى امامه بين آونة واخرى ، وقد يكون داني الآن فريسة آلام مبرحة. آه كم كان يتمنى ان يفعل شيئاً لمساعدة داني والتخفيف عنه . .

مشى ببطء الى البيت وكانت امه في المطبخ تراقبه منتظرة ان يخبرها بشيء، ولكنه لم يفه بكلمة . فقالت : « كيف كانت احوالك في المدرسة اليوم ؟ »

— « حسنة ! شكراً لك يا اماه . »

— « ذهبت اليوم الى بيت السيد بطرس لاستخبر عن الصبي وقد وجدت أنيت واباها آخذين داني بالعربة الى الطبيب وسيرجعون في ساعة متأخرة من الليل . خاطبتني الجدة بغاية اللطف . حقاً انهم كرام لطفاء يا لوسيان ! لا شك في انهم سيصفحون عنك ، ولن يلحقوا بك ما تستوجبه من عقاب . »

لم يجب لوسيان بكلمة . وجعل يفكر : « قد تغفر لي الجدة وتصفح عني ، أما انيت فلن تغفر ابداً » .

وسألته امه بعد لحظة : « هل عرف المعلم بالحادث ؟ »

— « نعم . »

— « وهل قال لك شيئاً عنه ؟ »

— « كلا ، كلا . »

فاستغربت الوالدة جداً . لقد قضت ذلك النهار ببؤس ، متوقعة ان تسمع انباء مؤلمة عما سيلاقي ولدها من الاهانات في المدرسة، وها

هو يكلمها وامارات الانتعاش بادية عليه خلافاً لما كان عليه في الصباح.

وقال لوسيان وهو يتوجه الى الاسطبل لكي يتخلص من اسئلة والدته : «انا ذاهب لأحلب البقر يا اماه.» وحلب ما امكنه ثم انحنى على الدلو يشرب منه حتى ارتوى ، فانتعش واسترد قواه . وعند المساء صمم ان يبقي شيئاً من عشائه ويأخذه زاداً للنهار التالي ، فيذهب الى الغابة ويصرف فيها يوماً ثانياً بهدوء ، ويستمر على ذلك الى ان يكتشف امره .

صرف ما امكنه من الوقت بحلب البقرات ثم رجع متمهلاً في مشيته ، حاملاً دلو الحليب الى البيت . ولما وصل الى الباب صادفته اخته وهى تلهث من التعب، فراحت توبخه قائلة: «يا لك من جبان! تتغيب عن المدرسة كل النهار ! ما الذي كان يعمله يا اماه ؟ كان الأفضل ان تجبريه على الذهاب الى المدرسة » .

فانتهرتها امها : « ما لك وله يا ماري ؟ دعي اخاك وشأنه وانتبهي لأمورك ، ان اخاك كان في المدرسة ورجع منذ قليل » .

«حقاً؟فليخبرنا اذن من أين رجع. التقيت بالمعلم صدفة وانا ذاهبة الى المحطة، وكان ينظف بستانه من العشب. فناداني من وراء السياج وسألني عن سبب تغيب لوسيان ، وعما اذا كان مريضاً . فأجبته انه بصحته التامة وانه غداً يأتي الى المدرسة مهما كلف الأمر . فليكن هذا معلوماً لديك يا لوسيان ... من يعرف اين كنت طول النهار ؟ غداً سآخذك بنفسي الى المعلم . »

فهاجت امه وانتفضت وقالت له بحدة : « أهكذا تكذب عليّ يا لوسيان ؟! يا لك من شقي ! ماذا أعمل بك ؟ ان المعلم يعرف كيف يؤدبك » .

ان هذا السلوك الذميم قد حيرها واضرم في صدرها نيران الحزن فرفعت مئزرها عن وسطها وغطت به وجهها وجعلت تبكي .

اما لوسيان فجلس قرب الموقد بمرارة وحزن . ان امله الوحيد بالهرب قد خاب : غداً سيضطر للذهاب الى المدرسة ، وستكون أنيت هناك فالتقط قطعة خشب كانت امامه وجعل يبريها بسكينه ، وبعد لحظة احسّ باصابعه تلمس الحيوان الخشبي في جيبه .

الفصل الثامن

استلقى داني على كيس ناعم من التبن مفروش في العربة. وكانت عيناه شاخصتين الى السحب البيضاء المنتشرة قطعاً في السماء كأنها حملان ترعى في مرج ازرق. وكانت في صدره رغبة شديدة في التطلع الى ما حوله في الطريق ، ولكن أنّى له ذلك ما دامت رجله تؤلمه وتحول دون جلوسه على فراشه؟ فكان يشخص الى الغيوم؛ بينما أنيت تسرد عليه وقائع الحوادث وتصف له المناظر . وكثيراً ما كان يصرخ متألماً من ساقه خصوصاً عندما تهتز العربة ، فتقوم انيت حالاً وتخفف عنه بكلماتها الناعمة واحاديثها اللطيفة .

مضت الرحلة بسرعة الا انها كانت طافحة بأسباب المسرات فانهم بعد ان تركوا الشلال وهديره وراءهم اتجهوا نحو طريق واسعة ، على جانبيها اشجار الشربين . ثم مروا بمعامل النجارة وكانت رائحة الخشب منتشرة في كل الأنحاء . وما زالوا يمشون في حقول واسعة الى ان بدأت البيوت تظهر ، فاخبرته بأنهم اقتربوا من المدينة . ووصل « الموكب » اخيراً الى المستشفى .

كان المستشفى صغيراً ولكنه في نظر أنيت وداني كبير جداً . المرضى جالسون على الشُرف يتمشون، والباب مفتوح على مصراعيه. نزل الوالد حالاً من العربة وربط اللجام الى عمود ودخل. وبعد لحظة عاد يصحبه رجلان معهما محمل ، فجُعِل داني عليه وأُدخل الى غرفة العيادة ، ووُضع على مقعد خشبي ، وجلس الوالد عند الرأس وأنيت عند القدمين .

جلسوا صامتين وجعل داني يراقب الممرضات ، وقد أُعجب بمآزرهن البيض الطويلة وقبعاتهن المخرّمة . فقال : «آه ! ما اشبههن بملائكة الرحمة !.. »

طال انتظارهم هناك حتى ان الوالد وأنيت غلب عليهما النعاس . والقى داني ذراعيه فوق رأسه وغرق في النوم ، ولم يفق الا حين جاء اليه الطبيب . كان هذا رجلاً متقدماً في السن ذا لحية بيضاء وصوت أجش . وقد فزعت منه أنيت .

وتتابعت الامور سراعاً . حملوا داني على عربة صغيرة ليصوروا ساقه ، وكان يود لو يُسمح له بالصورة فيعلقها في غرفة الجلوس . ثم امسك الطبيب ساق الولد بشدة ليقوّمها مما جعل داني يصرخ متألماً. في هذا الوقت أُحضرت اليه الصورة غير انها لم تظهر كأنها ساق داني.

فالتفت الطبيب الى الوالد قائلاً : « يجب ان يظل الولد في المستشفى لأن ساقه مكسورة .»

فرفض الوالد بتاتاً، واصرّ على ان لا يترك ولده في عناية ذلك الطبيب ذي اللحية المفزعة واليدين القاسيتين ، فأجاب بحزم: «اليس ممكناً ان يُعتنى به في البيت؟»

فهز الطبيب كتفيه قائلاً : «ممكن ؛ غير اني لا استطيع ان آتي اليه مراراً ؛ وعليكم ان تأتوا به الى هنا . »

فأجاب الأب بثبات : « هذا لا يهم » .

عندئذ أمسكت أنيت بيد ابيها وضغطت عليها مستحسنة جوابه. فهزّ الطبيب كتفيه ثانية واشار الى الممرضة ان تجر داني بالعربة الى داخل الغرفة المجاورة . وبعد نصف ساعة اعادته الى حيث كان وهو لا يذكر شيئاً مما حصل له سوى انه اشتم رائحة غريبة . ولما عاد كان منظره كئيباً تاعساً ؛ ولاحظت انيت انه مغطى من وسطه الى ركبتيه بالجص الأبيض، فاستغربت منظره. تعجب داني وتساءل فيما اذا كان من الضروري ان يلبس ذلك السروال الأبيض ؛ وقال انه يكره لحية الطبيب والحّ في الرجوع الى البيت . جميعهم اتفقوا على رأي واحد : فأنيت ارادت الرجوع لكونها جائعة ، وداني لانه تعب ، والوالد لانه كان يفكر ببقراته . وهكذا صار .

وعندما رجع الطبيب ليصور ساق داني مرة اخرى لم ير اثراً لاحد منهم في المستشفى. ولمح من بعيد عربة يجرها حصان بسرعة، وفيها ثلاثة اشخاص ...

فقال متمتماً : « يا لهم من حمقى! لقد ظنوا اني لن اعود وذهبوا دون ان يعرفوا متى يجب ان يرجعوا اليّ ثانية. أما الآن فما عليّ الا ان اكابد مشاق الطريق حتى ازور الولد » . وبالفعل كان الاب قد نسي ان يسأل الطبيب عن موعد الزيارة الثانية ، وما تذكر الا بينما كان يفك حصانه من العربة . فنادى ابنته قائلاً: «قد نسينا يا أنيت ان نسأل الطبيب عن مدة بقاء الجص على ساق داني » .

فقالت: «لا بأس يا والدي ؛ تقدر ان تستفهم منه حين تُنزل الجبن الى القرية في الاسبوع القادم . لا اظن ان الجص يبقى مدة تقل عن ذلك ، لاني اعرف ولداً في المدرسة بقي الجص على ذراعه مدة ستة اسابيع » .

— « ان كان الأمر كما تقولين فلا لزوم لأن اعجل بالذهاب اليه . على كل حال اننا متأخرون والساعة الآن تشير الى الخامسة ؛ فلن نجد الطبيب في مثل هذا الوقت . »

ثم ادخل حصانه الى الداخل وحمل داني واضجعه على المقعد في غرفة الجلوس حتى لا يستوحش ؛ وانامت أنيت بجانبه لئلا يطلبها في الليل ولا يجدها .

ظل داني على تلك الحالة عدة اسابيع ، ورجله مرفوعة على وسادة . وكان الجميع حوله يؤنسونه . لقد انقطعت أنيت عن الذهاب الى المدرسة لتنصرف الى خدمة داني . فكانت تروي له القصص الممتعة ، وتعيدها عليه مراراً حسب طلبه . وكانت تلاعبه وتسليه كل النهار. اما الجدة فكانت تحضر له الاطعمة اللذيذة لتحرك شهيته . لقد سعى الجميع الى توفير اسباب السعادة له . سكان القرية كانوا يبذلون خالص مودتهم وعطفهم لداني الذي كان يأسر لبهم بعينيه الزرقاوين كزهر البنفسج ، وبصوته الرخيم كصوت البلبل . وهكذا عرف داني — وهو ما يزال ابن خمس سنوات حياة دعوباً طروباً هنيئة .

الفصل التاسع

كان أهـل القرية يغدقون على داني العطف واللطف ، ويعملون جهدهم لتعزيته ومؤانسته . اما لوسيان فقد اعرض عنـــه الجميع واظهروا له نفوراً بالغاً من فعلته الشنعاء .

وتعرّض في بادىء الأمر لمعاكسات كثيرة ومناكدات شديدة : فالمعلم اوقفه امام جميع رفاقه وقدمه مثـالاً للشراسة والجبن . وبات الاولاد يتجنبونه وينظرون اليه شزراً ، او يطردونه من ساحة اللعب ، او يرشقونه بالوحل . ونجم عن ذلك ان استحوذ عليه الخجل وتمكن منه شعور بالخزي فلم يقدر على التغلب على نفورهم منه وعدم مبالاتهم به .

فانطوى على نفسه واصبح منفرداً في عالمه الصغير . فكان يذهب الى المدرسة وحده ويعود منها كذلك ، ويبتاع حاجاته وحده ، وفي ساعة اللعب يلعب وحده .

كان لوسيان يفكر في داني الكسيح ولا يجد سبيلاً للتخلص من التصورات . وكم كان يتوق ان يسأل أنيت عما قال الطبيب عن اخيها ، ولكنها نفرت منه منذ الحادث ولم تخاطبه بكلمة ، فلم يتجاسر ان يسألها شيئاً .

وفي البيت قل كلامه وانصرف الى العمل في المزرعة ، لكي يتناسى همومه واحزانه ومرارة الوحشة . كان يشتغل بهمة لم يعهدها فيه احد من قبل حتى اعجبت به والدته فأثنت عليه . واخته نفسها اصبحت لطيفة معه حين نظرت اعراضه عن الكسل والتواني واقباله الشديد على الجدّ والعمل واستعداده لمساعدتها في كل شيء .

كان ثمة مكان واحد لا غير ، مكان منفرد في الغابة ، يجد فيه لوسيان راحة بل سعادة . فكان يجلس تحت ظلال الاشجار بعيداً عن العالم المشحون بالبغضاء . وانتهز كل فرصة سانحة للذهاب الى ذلك المكان فكان يلهو بالاخشاب التي ينحتها اشكالاً فنية متنوعة ، فتنقشع بذلك غيوم الاكدار ويطغى عليه شعور بالهناء والصفاء .

ما كان اجمل منظر اشجار الصنوبر خاصة في بداية فصل الصيف ! كان في أعلى الرابية كوخ صغير يسكن فيه رجل شيخ ، مع عنزته ودجاجاته وهرته . وكان منعزلاً عن الناس ، غريب الاطوار ، لا ينزل الى القرية الا نادراً لشراء حاجاته . وكان الاولاد يهربون منه ، عند رؤيته ، خائفين ؛ وكانوا يلقبونه بشيخ الجبل . وكان البعض ينسب اليه البخل ، والبعض الآخر يؤكد انه مجرم هارب من وجه العدالة ، وآخرون يقولون انه مختل العقل . فلم يكن احد يجسر ان يزوره او ان يمر من ذلك المكان في الظلام .

ذات يوم ، كان لوسيان ، في عطلة نصف النهار ، يتجول في الغابة فتوغل فيها اكثر مما كان يريد . وجلس كعادته ينحت الاخشاب ، فصنع سنجاباً حاملاً جوزة بين مخالبه . وبغتة ، سمع صوت تنفس

عميق خلفه، فالتفت فوراً ورأى شيخ الجبل ينظر متأملاً بالسنجاب. فذعر لوسيان من منظره اذ كانت لحيته البيضاء مسترسلة على صدره، وانفه المعقوف كأنه منقار احد الجوارح. لكن عندما تفرس في الشيخ لاحظ في عينيه بريقاً من اللطف والذكاء، فامسك عن الفرار؛ وقصد ان لا يجفل منه مع كونه غريب الشكل. انه لا يعلم شيئاً عن ماضيه، ولذا تجلد وقال: «نهارك سعيد يا سيدي»، وانتظر نتيجة سلامه.

فمد الشيخ يده كالمخلب وأخذ منه السنجاب الخشبي، وجعل يقلبه ويفحصه متأملاً فيه، ثم قال بصوت اجش: «انك تحسن الحفر. من هو معلمك؟»

— «لا معلم لي يا سيدي؛ انا معلم نفسي.»

— «نعمَ المعلم! انك لحذق وتستحق ان يكون لك من الادوات ما يناسب مهارتك. يلزمك شيء من التدرب فيصبح بامكانك ان تحصّل معيشتك... ان هذا السنجاب متقن للغاية، حتى ليبدو ان الحياة تدب فيه.»

— «لا ادوات لي، ولا مال عندي فاشتري شيئاً منها.»

فأومأ اليه الشيخ أن اتبعني. فتبعه لوسيان وكأنه في حلم... سار كلاهما دون كلمة، وتسلقا الوعور حتى وصلا الى الكوخ الصغير. كانت غرفة الجلوس هي المطبخ في آن واحد. وكانت مفروشة بشكل غريب. هناك ترى دلو الحليب ومقعداً خشبياً ومعلفاً وطاولة واحدة وكرسياً واحداً ومصفاة. وكان حول الجدران رفوف بعيدة عن متناول قرون العنزة مصفوفة عليها منحوتات خشبية، بعضها

جميل الشكل والآخر مضحك ؛ ولكن جميعهـــا تدل على مهارة وفن . تماثيل على شكل دببة، وبقر، ومعزى، وكلاب «سان برنار» الضخمة ، وسناجيب ، وتماثيل رجال ونساء ، وعفاريت واقزام ، واولاد راقصين ، واشكال صناديق قد حفر عليهـــا بعض نباتات الجبل ، واشكال صحون فيها زهور . كان اجمـل ما رآه فلك نوح مع عدد من الحيوانات الصغيرة تتسابق اليه . لم يتمالك لوسيـان من تحديق نظره فيها ؛ فوقف مبهوتاً وقد ملكت لبّه . فقال له الشيخ: « هذه هى هوايتي ؛ اتسلى بها ايام الشتاء . ان زرتني من وقت الى آخر علمتك كيفية استعمال الأدوات باتقان » .

فنظر اليه لوسيان بشوق ، ورأى هيئته قد تغيرت ووجهـه قد اصبح مشرقاً لطيفاً فقـال : « ألم تقل لي يا سيدي اني قد احصّل معيشتي من هذا العمل ؟ »

— «نعم ولكن يلزمك بعض الزمن. ان لي صديقاً يبيع منحوتات خشبية بأثمان باهظة . عنده كثير من مصنوعات يدي ولكني احتفظ ببعضها لشدة ولعي بها . اما انت ، فلي امل انك ، بوقت قصير ، تستطيع موافـاته بأحسن ما يُعرض للبيع . لا ريب انك ستتقن العمل عندما تستعمل ادواتي بدلاً من سكينك . »

وكان لوسيان ينظر اليه بشغف وقلبه يتهلل شكراً على ما اظهر له ذلك الشيخ من اهتمام ... لقد وجد اخيراً من يلاطفه ويتفهمه ولا يسيء به الظن ! فاندفع لوسيـان ممسكاً بيد الشيخ شاكراً : « ما اعظم ألطافك ، سيدي ، نحوي . »

فقاطعه : « انا وحدي ، لا اصدقاء لي ، ولكن ، لا بأس ، فبوسعنا ان نعمل معاً » .

— « وانا مثلك وحيد ليس لي اصدقاء . »

وبينما كان لوسيان راجعاً الى البيت ، كان دماغه مرتعاً لشق التصورات والافكار ، ولكنه كان يحاول ان يركزها حول فكرة هي في نظره أهم من سواها : ان يصنع لداني فلكاً شبيهاً بالفلك الذي رآه في بيت الشيخ ، فلكاً يحتوي بأحجام صغيرة اسوداً وارانب وفيلة وجمالاً وبقراً يصفّها حول نوح وامرأته . وعندما يفرغ من هذا العمل الفني يحمل الفلك بما فيه الى بيت بطرس ويقدمه هدية صلح لداني . وهكذا قد تعود المياه الى مجاريها ، وتزول الأحقاد ...

وكان قلبه يخفق فرحاً . ولكن لم يستمر فرحه الا مقدار ساعتين قضاهما في اجتياز الغابة . ولما بانت امامه القرية انقبض صدره : غداً سيذهب الى المدرسة . ان الخوف والوحدة يرافقانه ...

وشرع يتردد الى الغابة ثلاث مرات في الاسبوع بعد ساعات المدرسة . فكان يجلس عند باب كوخ الشيخ ويشتغل في صنع الفلك ، مستعيناً بأدوات الشيخ الحادة .

وكان الشيخ يعجب ببراعة الفتى الذي كان في كل زيارة يبدأ بمنحوت جديد . فيتزايد عدد افراد عائلة نوح ، ويتزايد عدد الحيوانات ، ويزداد الفلك نمواً ...

وسمع لوسيان خبراً مفرحاً ، وهو ان مفتشاً أتى الى المدرسة وأعلن انه سوف تقام مباراة في الأشغال اليدوية . البنات يعرضن

شغل الابرة والحياكة ؛ والصبيان يعرضون منحوتات خشبية. وستعطى الجائزة الاولى للفائز . وجعل الأولاد يتسابقون ليتقنوا عملهم ؛ وكل منهم عزم في نفسه ان يبذل الجهد لربح الجائزة . كان لوسيان متيقناً من نجاحه ومتأكداً ان لا احد يستطيع ان يتفوق عليه . وطمأن نفسه بقوله : « لا بد ان اربح الجائزة فيعلم الجميع اني قادر على عمل شيء ما ، رغم قصوري في المدرسة ونفور الجميع مني اوقات اللعب » .

ورجع الى البيت في ذلك اليوم يهلل قلبه فرحاً . وتخيّل انه سائر امام صفوف التلامذة المدهوشين بجائزته. وقال في نفسه: «عسى ان يساهم فوزي في تصفية الجو وازالة البغضاء من قلوب رفاقي . .»

وفكر ان ينحت حصاناً لانه كان مولعاً بالخيل. وقد شاهد عند الشيخ تمثال حصان يعدو طويل الذيل واسع المنخرين فاعجب به جداً. وصمم ان يبدأ به حالما يكمل الفلك . واسرع ليطلع صديقه الشيخ على خبر المباراة فسرّ الشيخ لتيقنه بفوز لوسيان .

ـ « ولكن ، لماذا تنحت حصاناً جديداً ؟ بامكانك ان تعرض الفلك وحده . لم يبق الا القليل حتى يكمل . ان صنعه متقن جداً بالنسبة لعمرك . »

فهز لوسيان رأسه وقال بحزم : « ان ذاك تقدمة مني . »

ـ « تقدمة ؟ لمن ؟ ألأخ صغير ؟ »

ـ « انه تقدمة لولد صغير وقع فكسر رجله ... »

ـ « حقاً ؟ وكيف فعل ذلك ؟ »

– « وقع في النهر . »

– « مسكين هذا الصغير ! وكيف كان ذلك ؟ »

صمت لوسيان لحظة . وتذكر ملاطفة الشيخ له وعطفه عليه فلم يملك الجرأة ان يكتم صديقه الخبر ، فنظر اليه بخجل وقال :

« انا كنت سبب وقوعه . لقد رميت قطته في الوادي فأسرع لينقذها ... » قال هذا وعضّ على لسانه ندماً على ما قال . وخاف ن يقطع الشيخ كل علاقة معه ويبعده عنه . ولكن الشيخ كان في غاية اللطف فقال مستفهماً : « أهذا هو سبب ابتعاد الجميع عنك» ؟

– « أجل . »

– «وهل انت قاصد بهذا التمثال البديع ان تستغفر الصبي وتعوض عما بدر منك ؟ »

– « نعم . »

– «حسناً تفعل. إسعَ جهدك ان تلاطف الناس دائماً وتظهر لهم العطف والمودة. لا تعدلْ عن اتباع هذه الخطة المثلى حتى وان قابلوك بالإعراض والجفاء . الزمها ابداً تعش سعيداً . »

وفي ذلك المساء فرغ لوسيان من صنع الفلك فحمله مسرعاً بوجه متورد وبقلب خائف الى بيت السيد بطرس. وعندما صار على مقربة من البيت وقف وراء شجرة وهو يرتجف متسائلاً : « ماذا اقول ؟ وكيف يمكنني ان اقابلهم ؟ آه ! لو اظفر بداني وحده لهان الأمر ؛ لكن انيت لا تدعه يخرج بعد ساعات المدرسة . »

وظل يتأرجح بين الرجاء والخوف حتى خرج من مخبأه ، وقصد البيت بخطوات ثابتة . لم ير داني في الرواق ... كانت أنيت جالسة وحدها تصلح اكام معطف والدها . فخفق قلبه عند رؤيتها وجفل. ثم صعد الدرج ورفع الفلك امام وجهه وقال بصوت خافت : « هذا تقدمة مني لداني . »

تلعثم بالكلام وصمت مطرقاً الى الارض . فهبت انيت من مكانها وأخذت منه الفلك غاضبة وقالت : « أتجسر ان تقدم هدايا لداني ؟ اغرب من هنا حالاً واياك ان تأتي ثانية » .

قالت هذا والقت بالفلك الى الغابة بكل قوة ذراعها الصغيرة . فتناثرت الحيوانات هنا وهنالك .

حملق لوسيان لحظة ثم قفل راجعاً يتعثر بخطواته . لقد ضاعت كل جهوده وتناثرت كل آماله ، فلا سبيل للصفح .عند ذاك طرقت أذنه كلمات الشيخ : « اسع جهدك ان تلاطف الناس ... حتى وان قابلك الناس بالاعراض ... »

الفصل العاشر

كانت ساق داني في تحسن ولكنه تحسن بطيء جداً . وذهب الطبيب عدة مرات لبيت مريضه ، وكان احياناً يبدي حيرة وارتباكاً . واخيراً نقل داني الى المستشفى . وبعد ان نزع الطبيب الجص عن ساقه ، تحقق ما كان يرتاب منه : لاحظ ان ساقه لم تجبّر كما يلزم ، فبقيت اقصر من اختها .

وقع هذا الخبر كالصاعقة على الاب ، فذهب كسير القلب الى النجار وطلب منه ان يصنع له عكازتين من خشب ، ثم ذهب الى الاسكاف آخذاً معه حذاء داني واوصاه ان يزيد قيراطين في نعل احدى القدمين لتتوازى الساقان .

كان للسيدة موريل اربع بقرات، فأرسلتها في الصيف الى الجبال تسرح مع قطيع آخر في المراعي العالية. وهكذا اصبح لدى لوسيان وقت فراغ طويل بعد ساعات المدرسة ، فاغتنم هذه الفرصة وجعل يزور صديقه الشيخ يومياً .

حصانه الخشبي كاد يكمل. انه في غاية الاتقان والفن بالنسبة الى ولد في سنه . صنعه بحجم اكبر مما كان ينوي ، بناصية مطلقة في الهواء ، وحوافر صغيرة لا تكاد تمس الأرض . كل من ينظر اليه يرى فيه السرعة والرشاقة والاناقة . قضى لوسيان الساعات في صنعه ، واخذ يراقب كل حصان يمر به ، ليتقن كل عضلة في حصانه .

كان لديه وقت كافٍ قبل العرض لان المسابقة لا تبدأ قبل نهاية عطلة الصيف . الا ان اولاد المدرسة بدأوا يتبارون ؛ فالمحبرة التي صنعها ميخائيل ، ابن بائع الحليب ، قد استمالت اعجاب الكثيرين . وقد نحت عليها دبين يتسلقان سارية سفينة ، فكانت قطعة لا بأس بها . ولكن الدبين كانا اكثر شبهاً بكلبين او باي حيوان آخر. نظر لوسيان الى المحبرة دون ان يتفوه بكلمة .

اما أنيت فقد حاكت لأخيها صدرة من الصوف الازرق مزركشة بالزهور عند الطوق والخصر . وصرحت لها صديقاتها عدة مرات قائلات : مما لا شك فيه انك ستحرزين الجائزة الكبرى . وكانت أنيت تستبشر خيراً وترجو الفوز لان علاماتها في دروس الحساب رديئة. كم يكون فرح جدتها ووالدها وداني عظيماً اذا فازت بالجائزة! حان وقت الحصاد، وهو وقت عمل للجميع . فالشباب يطفح البشر من وجوههم . الجار يتحمس لجاره ، والقوي يساعد الضعيف . كان لوسيان مع والدته واخته ،يجتهدون في جمع الحزم قبل افتتاح المدارس فيضطر لوسيان ان يذهب الى المدرسة . كانوا كلهم في الحقل عندما اتت أنيت كعادتها بغداء والدها وهي مستعجلة ، لان ميعاد معرض

الاشغال اليدوية هو افتتاح المدرسة، وعليها ان تزيد شيئاً في الصدرة قبل عرضها . وباتت تقول في نفسها : « أتكون الجائزة من نصيبي؟ مهما يكن من أمر فلا شك ان الصدرة ستكون بديعة عندما يلبسها اخي داني » .

وفيما كانت راجعة في حر النهار عطشت ، فمرت في بيت السيدة موريل . رأت باب المطبخ المؤدي الى الرواق مفتوحاً ؛ واذ كان لها عادة ان تدخل البيت ، قبل وقوع الحادث ، دون استئذان قالت لنفسها : « لا بأس ان دخلت وشربت » .

فقفزت الى الرواق ، وقبل ان دخلت المطبخ ، وقفت شاخصة مذهولة وقد جمد الدم في عروقها: كان ثمة منضدة صغيرة عليها بضع آلات للنحت وقطع خشب.وبين هذه القطع تمثال حصان صغير كأنه مسرع في الجري ، بناصية متموجة وحوافر انيقة .

وقفت انيت مدة شاخصة اليه مذهولة وهي تقول : «لا شك ان هذا ما اعده لوسيان للمسابقة . ! لم يذكر عنه شيئاً للأولاد ؛ لا ولم يُعلمْ احداً قط انه يحسن النحت او انه احد المتسابقين . حصان في غاية الاتقان ! واذا عرضه فانه بلا ريب رابح الجائزة دون مزاحمة ! وان ربح الجائزة فانه سيربح قلوب الكثيرين ، فيصاحبونه وينسون انه آذى داني وتركه كسيحاً ؛ بل سيفرح ويمشي فخوراً مرفوع الرأس . لا، لا يجوز ان يفرح ! هذا ما لا تحتمله أنيت. لماذا يفرح؟ انه لا يستحق الا كل تعاسة وحزن . »

كانت ادوات النحت والتمثال موضوعة على صفيحة خشبية فوق

كرسي . نفخة من الهواء تكفي لقلب الحصان على الارض خارجاً . ولن يدور في خلد احد ان يتهمها بتحطيم الحصان ...

ورفعت أنيت يدهـا وقلبت الحصان على الأرض ؛ ثم قفزت من الرواق وداست الحصان حتى تحطم . ومضت في طريقها الى البيت.

هناك ، على الوحل ، تركت حصان لوسيان محطماً !..

وأظلمت الدنيا في عيني أنيت . لما رآها داني صرخ باعلى صوته مرحباً بها واخذ يتوكأ على عكازه باسرع ما يمكن وينادي صارخاً وعيناه تلمعان فرحاً : « أنيت ! أنيت ! لما ذهبت الى الغابة لاصنع بيتاً صغيراً وراء اكوام الحطب ،وجدت هناك فيلاً صغيراً له خرطوم طويل ؛ ثم تطلعت ثانية فلقيت جملاً على ظهره سنام (حدبة) ، ثم ارنباً طويل الاذنين ، وبقرة معزى ونمور ، وزرافـة ذات عنـق طويل جداً ! آه يا أنيت ! اسرعي وانظري . لست أعلم من وضع هذه الحيوانات في ذلك المكان . هل تعلمين ؟ » .

فأجابت بصوت غضوب : « لا أعلم . »

فنظر اليها داني مستغرباً ! انها لم تظهر اكتراثاً بهذا الاكتشاف العظيم ! كانت أنيت تسبقه على غير عادتها ؛ فجعل يضاعف الجهود للحاق بها ويقول في نفسه: «عندما ترى اكتشافي لا بد ان تسر به، فهي لم تشاهده بعد » . لما وصلا الى المكان المقصود ، قادها اخوها الى اكوام الحطب . ثم انحنى وسحب من تحتها قافلة من الحيوانات المنحوتة ، مصطفة على قطعة خشب مسطحة ونظر بشوق اليها . ثم لاحت منه التفاتة الى اخته ، فلم يرَ على وجهها اثراً للتعجب .

فقالت له : « داني ! اظن ان احـد الاولاد رمى هذه الخشبات هنا ؛ وعلى كلٍ ليست هي بالعجب العجاب لتستحق الاهتمام . »

قالت هذا وتركت المكان مسرعة وقد استاءت من شراسة طبعها. وقالت في نفسها : «ما اكرهني! لقد هدمت سرور داني . يا للغرابة ماذا حدث حتى خاطبته بهذه اللهجة ؟ »

وفي ثنايا قلبها كانت البغضاء كامنة. وفي صميم باطنها عرفت سبب هذا الانقلاب فيها . لقد ارتكبت عملاً دنيئاً ، فاظلم قلبها وتبددت البهجة من حياتها . ولم يكن باستطاعتها ان تنسى فعلها الرديء، ولا ان تتخلص من وخزات ضميرها . اخيراً اسرعت الى غرفتها وغمرت رأسها بلحافها وانفجرت بالبكاء .

الفصل الحادي عشر

رجع لوسيان الى البيت في ذلك المساء بقلب يطفح جزلاً . لقد اشتغل طول النهـار في الحقول بجد واجتهاد . كان منهوك القوى ، ولكن حصانه الصغير ينتظره في البيت . غداً يحمـل حصانه الى المدرسة ، وسيعلم الجميع انه يحسن النحت . ما ان دخل البيت حتى جمد في مكانه كالميت. أين الحصان؟ لم يجد سوى الاخشاب والادوات على المنضدة ! لعلّ امه ادخلته الى البيت ! فهرع الى الداخل يناديها: « اماه ! اماه ! اين وضعت حصاني الصغير ؟ »

فالتفتت اليه امه واجابت: «اني لم امسه ، بل رأيته. قد تكون وضعته في مكان ما ونسيته . »

فقال لوسيان مرتاعاً : « كلا يا اماه ! اني تركته على المنضدة . فأين هو يا ترى ؟ آه ساعديني حتى أجده . »

فتركت امـه المطبخ وتبعته تفتش معه . آه ! كم كانت شديدة الرغبة في ان يربح ولدها الجائزة ! وفتشا في كل مكان ولكن دون

جدوى . اخيراً طرأ على بالها فكر وقالت : « قد يكون سقط من وراء الدرابزين يا لوسيان . اسرع وانظر . »

ما ان نزل ونظر الى الارض ، حتى رأى حصانه قد استحال الى قطع مبعثرة على الوحل؛ فجمعها بيده المرتجفة وحملها الى امه. حينئذ لم يتمالك عن الصراخ والعويل. فهرولت ماري والحزن بادٍ على محياها: «انها القطة !انا آسفة يا لوسيان! الا يوجد لديك شيء آخر تعرضه ؟» لم تقل امه سوى : « آه يا لوسيان » ! ولكن لهجتها كانت تعرب عن اشياء واشياء . اما لوسيان فلم يفه بكلمة البتة بل دخل ونظر الى الساعة على الحائط ثم قال لأمه بصوت هادىء : « اني ذاهب الى الجبل فلا تنتظروني للعشاء . »

واسرع بين الحقول حيث حزم التبن ملقاة كامواج مزبدة في بحر أخضر . ووقفت امه تنظر اليه باضطراب حتى توارى، فرجعت الى المطبخ تذرف الدموع : « كل شيء يعاكس هـذا الولد ! أفلا ينجح في أمر من الأمور ؟ »

وصل لوسيان الى بقعة خالية؛ فاستطاع ان ينظر بعيداً من فوق رؤوس الاشجار الى سلاسل الجبال المبيضة قممها بالثلوج فتنهد قائلاً: « يا ليتني اذهب بعيداً وابدأ حياة جديدة حيث لا أحد يعرفني او يعلم شيئاً عني آه! لو اتيح لي ان أعيش في وادٍ آخر لما كنت وجلاً افزع من الآخرين ، كما هي حالتي الآن » . استقر نظره على ممر بين قمتين متقابلتين كان يؤدي الى القرية المجاورة حيث كانت اخته ماري تشتغل في الماضي وخيل اليه هذا الممر طريقاً الى عالم آخر بعيد عن

الطمأنينة العائلية والانس ، حافل بالمغامرات والمخاطر ! هناك طفت الطبيعة على المسافرين الاشداء واهلكتهم بعواصفها الثلجية . لقد عبر ذاك الممر مرتين سابقاً ؛ ولكن كان ذاك في فصل الصيف ، حين تكون الشمس مشرقة والارض منمقة بالزهور. اما الآن فالشمس ترسل على ذلك الممر اواخر أشعتها . فتخيّل الممرّ باب مهرب من السجن، باباً يدخله وحده الى عالم الغروب ، فيجد فيه الراحة والحرية .

حالما ترك لوسيان الغابة رأى الشيخ جالساً في باب كوخه مسنداً ذقنه بيده ، يتأمل الجبال المنتصبة امام عينيه . ولم ينتبه لقدوم لوسيان الا بعد ان اقترب منه . فقال الشيخ بصوت هامس : « آه! ها انت ذا آتٍ ! أين وصلت بالنحت ؟ متى تربح الجائزة ؟ »

فأجاب لوسيان بعبوس ويأس : «اني لن اربح الجائزة ! حصاني قد تحطم وتناثرت معه آمالي هباء . القطة ألقته الى الارض، ثم داسه احد المارة . »

فقال الشيخ بلطف : « آسف جداً على ما حصل . ولكن ، لا بأس ، تقدر ان تعرض شيئاً آخر . »

— «ما رأيك في الغزال الذي نحتّه واجدت صنعه؟ انه لجميل رائع.. !»

— « صنعته اذ لم يكن لدي من الادوات الا السكين . واخشى ان يظنوا بأن هذا أجود شيء يمكنني ان أعمله . لا ، لا . سوف لا ارضى عن حصاني عوضاً او بديلاً . »

— « هل يهمك ما يفكر الآخرون في حصانك أو فيك ؟ »

— « أجل . »

— « ولماذا ؟ »

فأطرق لوسيان الى الارض هنيهة يفكر في ما يقول . أيخبره بكل شيء؟ كيف لا وهو الصديق الوحيد له ؟ الافضل ان يصارحه بالحقيقة. فقال: «اجل، ان ذلك يهمني جداً. الجميع يكرهونني معتقدين اني بليد خامل فان ربحت الجائزة عرفوا ان باستطاعتي اتقان النحت احسن من اي ولد في القرية. ان ربحت تقرب الي الجميع وصاحبوني.»

اجاب الشيخ باخلاص : « لا اظن ذلك . اذا استعملت مهارتك لمآرب شخصية فلن تربح المحبة. قد تربح استحساناً وحسداً لا محبة. ان كانت هذه غايتك فقد اضعت الوقت . »

ظل لوسيان مطرقاً الى الارض مدة ، ثم رفع رأسه فجأة ونظر في وجه الشيخ بعينيه المغرورقتين بالدموع ، فقال له : « اذن كل المجهودات باطلة فاشلة . ليس من سبيل الى مؤالفة رفاقي . »

— «اذا شئتهم ان يدانوك ويحبوك، فعليك ان تؤهل نفسك لذلك وتستعمل مهارتك في محبتهم وخدمتهم . لكن ذلك لا يحصل دفعة واحدة ؛ قد يتطلب ذلك اشهراً بل سنيناً ، فعليك ان تثابر . »

كان لوسيان شاخصاً الى الشيخ معجباً بكلامه . وبدأ يقول في نفسه : ان كان هذا الرجل الكبير السن والغريب الاطوار واسع الاطلاع باساليب المودة والحب فلماذا ترى انقطع عن البشر واغلق قلبه دونهم ؟ وكأن الشيخ قرأ ما يجول في دماغ الولد فقال: «اراك تستغرب كلامي عن المحبة وخدمة الآخرين، أليس كذلك ؟ انك على حق . آه ! انها قصة طويلة . »

اجاب لوسيان بلهفة: «أحقاً ما تقول؟ كنت افكر انه من الصعب

ان تحب وتخدم الآخرين وانت في عزلة عنهم لا تحادث احد سواي.»

فجلس الشيخ صامتاً هنيهة ، وكان ينظر الى القمم البعيدة حيث تركت الشمس وهيجاً ذهبياً بعد المغيب وقال : «سأتلو عليك قصتي. ولكن اعلم انها سرّ لم اذكره لاى انسان سواك . لقد وضعت ثقتك فيّ . وانا بدوري اضع ثقتي فيك ! »

فاحمر وجه لوسيان خجلاً . انه كلام من ذهب . فالجائزة والفشل لا يوازيان تلك العبارة . الثقة افضل من اي ربح .

قال الشيخ : «كنت وحيداً لوالدي ولم يكن ابي ليبخل علي باي شيء ؛ فنشأت محباً لذاتي .

« وكنت حاذقاً ذكياً . ولما كبرت حزت منصباً لا بأس به في احد المصارف . فجاهدت حتى علا منصبي . ثم همت بفتاة وتزوجت بها ، فرزقنا الله ولدين . وكنت في السنين القليلة الاولى من زواجنا اباً صالحاً وزوجاً امينا . لكني عاشرت قوماً اشراراً فأغرقوني في لجج شرورهم ودعوني الى بيوتهم للقمار والسكر والعربدة ، فاستمالوني اليهم وسلكت طرقهم المعوجة واصبحت مولعاً بالمقامرة والسكر وتبذير الاموال .

« لا حاجة أنْ اذكر الكثير عن تلك السنين . صرت اتغيب اكثر فأكثر عن البيت ، واعود اليه مترنحاً سكراناً . وكان ولداي يفزعان وينفران مني . وكانت امرأتي تبتهل الى الله وتصلي لأجلي ، ولكن بدون جدوى ؛ فالسكر اوقعني في قبضته ولم اكن أعرف قوة تستطيع ان تحررني من شراك الشر ...

«واخذ مالنا ينقص واخذ الناس ينتقدون طرقي الباطلة . حذرني مدير المصرف في المرة الاولى ثم انذرني ثانيـة ؛ وفي المرة الثالثة اذ وُجدت سكراناً ملقى في الشوارع في حالة مزرية طردني من العمل. اسرعت ذلك اليوم الى البيت واعلمت امرأتي بالامر ، فاجابتني: اذن علي ان اشتغل حتى نعول ولدينا . لا يمكننا ان نهملها ...

« سعيت لايجـاد عمل آخر ولكن قصتي كانت قد انتشرت بين الجميع ، ولم يجسر احد ان يستخدمني . سعيت ان احصل على المال من مناضد القمار ، فخانني الحظ وفقدت القليل الذي كان معي .

« كانت امرأتي تذهب يومياً الى العمل ، كما انهـا كانت تعتني بالبيت وبالولدين ايضـاً . ولكن ما كانت تكسبه لم يكن كافيـاً لنفقاتنا.وفي ذات يوم اخبرتني باننا وقعنا في عجز ، وليس لدينا ما يكفي لتسديد الديون .

« كنت بحاجة ماسة الى النقود لأفي الدين واشتري مسكراً.فخطر على بالي امر : صممت ان اسرق المصرف وقد عرفت جميع مخابئه . فدبرت خطة ماهرة ونجحت الخطـة في بادىء الامر غير ان سرقتي كشفت اخيراً . واذ لم يكن لدي ما ارد هذا المبلغ الباهظ ، حكم علي بالسجن لمدة طويلة . وقد اصيبت امرأتي في اثناء ذلك بمرض عضال الزمها الفراش اسابيع طويلة . كانت تقطع غن نفسها الطعام لتعول الولدين . زارتني في السجن ثلاث مرات وكانت شاحبة الوجه منهوكة القوى نحيلة الجسم كالخيال . اخيراً اخبرني ابني الاكبر برسالة انها لن تستطيع ان تزورني بسبب مرضها الشديد.وبعد بضعة اسابيع

رافقني شرطي الى البيت لأودع امرأتي بل ان تفارق الحياة. كانت على فراش الموت . قالوا انها ماتت ضحية السل ، اما انا فأعلم يقيناً اني قتلتها عمداً وغماً : ماتت كسيرة القلب .

« جلستُ بجانبها يوماً بكامله ، يداً بيد . كلمتني عن محبة الله ورحمته وعن غفران الذنوب . بقيت معها حتى فارقت الحياة . ثم ارجعني الشرطي الى السجن .

« لا اذكر الا القليل عن الاشهر التي تلت . كنت فاقد العقل غارقاً في لجج يأس مميت . لم يكن لي سوى تعزية واحدة: الحفر على الخشب. طيلة حياتي كان الحفر ولعي الاكبر بل الاوحد وفي ساعات الفراغ، وانا في سجني، كانوا يأذنون لي بالادوات وبقطع من الخشب، فكنت اجلس واهو بالنحت، فبرعت فيه. كان حافظ السجن لطيفاً معي ، يأخذ ما أصنعه الى السوق ويبيعه لي ؛ وبهذه الطريقة تيسر لي نزر قليل من النقود ، فحرصت على الاحتفاظ به لأني عرفت اني سأخرج يوماً من السجن وسأبدأ حياة جديدة .

« وجاء ذلك اليوم اسرع مما كنت اظن . فاستدعاني الحاكم اليه واخبرني اني بسبب حسن سلوكي قد منحت تخفيضاً عن مدة سجني ، واني سأخرج بعد ثلاثة اسابيع .

«رجعت الى غرفة السجن وكنت في حيرة لا أعلم ما هو اوجب علي: الحزن أم الفرح...لا شك اني سأسر عند خروجي من السجن، ولكن الى اين أتوجه ؟ وكيف ابدأ الحياة من جديد ؟ لقد عقدت العزم ان لا يعلم ولداي عني شيئاً. كنت اعرف ان جديهما قد تبنياهما

وكانا يقومان بالعناية بهما على اكمل وجه . كان الوالدان على جانب عظيم من الذكاء يفترّ لهما المستقبل عن ثغر باسم . لذلك لا أود ان الطّخ سمعتهما بماضيّ السيء او باسمي الرديء. وفضلت ان اكون في نظرهما كمن لفه الموت بأكفانه ...

« عرض علي الحاكم مساعدته لي في أول حياتي الجديدة ولكني رفضت مفضلاً ألا يهتدي احد الى الموضع الذي كنت مصمماً ان اذهب اليه . وفي يوم اطلاق سراحي توجهت الى المحطة. وكان معي بعض النقود . فركبت اول قطار ذاهب الى الجبال ثم نزلت في هذه القرية ، فصادفت رجلاً يرعى قطيع بقر؛وكان البقر يحاول الدخول الى بستان مهدوم السياج. فاسرعت وساعدت الرجل وارجعت معه البقر الى الطريق ثم طلبت منه ان يشغلني عنده .

« لم يكن الرجل بحاجة الى اجير، ولكنه اشار علي الذهاب الى كوخ في منتصف طريق الجبل، وقال انه يوجد هناك مُزارع بحاجة الى اجير لان ابنه سافر ليتعلم مهنة ، وليس من يعينه ...

« لن انسى – ما حييت – ذلك اليوم . كانت زهور النرجس منتشرة في الحقول . ولا زلت اصعد الجبل حتى وجدت الكوخ . ورأيت الرجل يشق الحطب. كنت تعباً جائعاً حائر الافكار ؛ ولذا لم اضيّع الوقت بالكلام الفارغ .

« قلت : « سمعت انك بحاجة الى راعٍ ، أفتقبلني عندك ؟ »

«فتأملني طويلاً، وكانت ملامح اللطف بادية على محياه والحنو في عينيه ، فقال : «لست من هذه القرية. فمن اين انت ؟ ومن انت؟»

ان تحب وتخدم الآخرين وانت في عزلة عنهم لا تحادث احد سواي.»

فجلس الشيخ صامتاً هنيهة ، وكان ينظر الى القمم البعيدة حيث تركت الشمس وهيجاً ذهبياً بعد المغيب وقال : «سأتلو عليك قصتي. ولكن اعلم انها سرّ لم اذكره لاى انسان سواك . لقد وضعت ثقتك فيّ . وانا بدوري اضع ثقتي فيك ! »

فاحمر وجه لوسيان خجلاً . انه كلام من ذهب . فالجائزة والفشل لا يوازيان تلك العبارة . الثقة افضل من اي ربح .

قال الشيخ :«كنت وحيداً لوالدي ولم يكن ابي ليبخل علي باي شيء ؛ فنشأت محباً لذاتي .

« وكنت حاذقاً ذكياً . ولما كبرت حزت منصباً لا بأس به في احد المصارف . فجاهدت حتى علا منصبي . ثم همت بفتاة وتزوجت بها ، فرزقنا الله ولدين . وكنت في السنين القليلة الاولى من زواجنا اباً صالحاً وزوجاً امينا . لكني عاشرت قوماً اشراراً فأغرقوني في لجج شرورهم ودعوني الى بيوتهم للقمار والسكر والعربدة ، فاستمالوني اليهم وسلكت طرقهم المعوجة واصبحت مولعاً بالمقامرة والسكر وتبذير الاموال .

« لا حاجة أنْ اذكر الكثير عن تلك السنين . صرت اتغيب اكثر فأكثر عن البيت ، واعود اليه مترنحاً سكراناً . وكان ولداي يفزعان وينفران مني . وكانت امرأتي تبتهل الى الله وتصلي لأجلي ، ولكن بدون جدوى ؛ فالسكر اوقعني في قبضته ولم اكن أعرف قوة تستطيع ان تحررني من شراك الشر ...

«واخذ مالنا ينقص واخذ الناس ينتقدون طرقي الباطلة . حذرني مدير المصرف في المرة الاولى ثم انذرني ثانيـة ؛ وفي المرة الثالثة اذ وُجدت سكراناً ملقى في الشوارع في حالة مزرية طردني من العمل. اسرعت ذلك اليوم الى البيت واعلمت امرأتي بالامر ، فاجابتني: اذن علي ان اشتغل حتى نعول ولدينا . لا يمكننا ان نهملها ...

« سعيت لايجـاد عمل آخر ولكن قصتي كانت قد انتشرت بين الجميع ، ولم يجسر احد ان يستخدمني . سعيت ان احصل على المال من مناضد القمار ، فخانني الحظ وفقدت القليل الذي كان معي .

« كانت امرأتي تذهب يوميـاً الى العمل ، كما انهـا كانت تعتني بالبيت وبالولدين ايضـاً . ولكن ما كانت تكسبه لم يكن كافيـاً لنفقاتنا.وفي ذات يوم اخبرتني باننا وقعنا في عجز ، وليس لدينا ما يكفي لتسديد الديون .

«كنت بحاجة ماسة الى النقود لأفي الدين واشتري مسكراً.فخطر على بالي امر : صممت ان اسرق المصرف وقد عرفت جميع مخابئه . فدبرت خطة ماهرة ونجحت الخطـة في بادىء الامر غير ان سرقتي كشفت اخيراً . واذ لم يكن لدي ما ارد هذا المبلغ الباهظ ، حكم علي بالسجن لمدة طويلة . وقد اصيبت امرأتي في اثناء ذلك بمرض عضال الزمها الفراش اسابيع طويلة . كانت تقطع غن نفسها الطعام لتعول الولدين . زارتني في السجن ثلاث مرات وكانت شاحبة الوجه منهوكة القوى نحيلة الجسم كالخيال . اخيراً اخبرني ابني الاكبر برسالة انها لن تستطيع ان تزورني بسبب مرضها الشديد.وبعد بضعة اسابيع

رافقني شرطي الى البيت لأودع امرأتي بل ان تفارق الحياة. كانت على فراش الموت . قالوا انها ماتت ضحية السل ، اما انا فأعلم يقيناً اني قتلتها هماً وغماً : ماتت كسيرة القلب .

« جلستُ بجانبها يوماً بكامله ، يداً بيد . كلمتني عن محبة الله ورحمته وعن غفران الذنوب . بقيت معها حتى فارقت الحياة . ثم ارجعني الشرطي الى السجن .

« لا اذكر الا القليل عن الاشهر التي تلت . كنت فاقد العقل غارقاً في لجج يأس مميت . لم يكن لي سوى تعزية واحدة: الحفر على الخشب. طيلة حياتي كان الحفر ولعي الاكبر بل الاوحد وفي ساعات الفراغ، وانا في سجني، كانوا يأذنون لي بالادوات وبقطع من الخشب، فكنت اجلس واهو بالنحت، فبرعت فيه. كان حافظ السجن لطيفاً معي ، يأخذ ما أصنعه الى السوق ويبيعه لي ؛ وبهذه الطريقة تيسر لي نزر قليل من النقود ، فحرصت على الاحتفاظ به لأني عرفت اني سأخرج يوماً من السجن وسأبدأ حياة جديدة .

« وجاء ذلك اليوم اسرع مما كنت اظن . فاستدعاني الحاكم اليه واخبرني اني بسبب حسن سلوكي قد منحت تخفيضاً عن مدة سجني ، واني سأخرج بعد ثلاثة اسابيع .

«رجعت الى غرفة السجن وكنت في حيرة لا أعلم ما هو اوجب علي الحزن أم الفرح...لا شك اني سأسر عند خروجي من السجن، ولكن الى اين أتوجه ؟ وكيف ابدأ الحياة من جديد ؟ لقد عقدت العزم ان لا يعلم ولداي عني شيئاً. كنت اعرف ان جديهما قد تبنياهما

وكانا يقومان بالعناية بهما على اكمل وجه . كان الوالدان على جانب عظيم من الذكاء يفترّ لهما المستقبل عن ثغر باسم . لذلك لا أود ان الطّخ سمعتهما بماضيّ السيء او باسمي الرديء. وفضلت ان اكون في نظرهما كمن لفه الموت بأكفانه ...

« عرض علي الحاكم مساعدته لي في أول حياتي الجديدة ولكني رفضت مفضلاً ألا يهتدي احد الى الموضع الذي كنت مصمماً ان اذهب اليه . وفي يوم اطلاق سراحي توجهت الى المحطة. وكان معي بعض النقود . فركبت اول قطار ذاهب الى الجبال ثم نزلت في هذه القرية ، فصادفت رجلاً يرعى قطيع بقر؛وكان البقر يحاول الدخول الى بستان مهدوم السياج. فاسرعت وساعدت الرجل وارجعت معه البقر الى الطريق ثم طلبت منه ان يشغلني عنده .

« لم يكن الرجل بحاجة الى اجير، ولكنه اشار علي الذهاب الى كوخ في منتصف طريق الجبل، وقال انه يوجد هناك مُزارع بحاجة الى اجير لان ابنه سافر ليتعلم مهنة ، وليس من يعينه ...

« لن انسى – ما حييت – ذلك اليوم . كانت زهور النرجس منتشرة في الحقول . ولا زلت اصعد الجبل حتى وجدت الكوخ . ورأيت الرجل يشق الحطب. كنت تعباً جائعاً حائر الافكار ؛ ولذا لم اضيّع الوقت بالكلام الفارغ .

« قلت : « سمعت انك بحاجة الى راعٍ ، أفتقبلني عندك ؟ »

«فتأملني طويلاً، وكانت ملامح اللطف بادية على محياه والحنو في عينيه ، فقال : «لست من هذه القرية. فمن اين انت ؟ ومن انت؟»

ـ « اتيت من جنيف » .

ـ « ما عملك ؟ »

ـ « ليس لي عمل » .

ـ « فماذا كنت تعمل قبل مجيئك الى هنا ؟ »

« فبدأت افكر في اكذوبة اختلقها ، ولكن الرجل نظر اليّ نظرة اللطف والعطف فذابت الاكذوبة على شفتي ورأيت من الافضل ان اصارحه بحقيقة حالي . فقلت : «اني آتٍ من السجن !»

ـ « لماذا كنت في السجن ؟ »

ـ « لاني سرقت . »

ـ « وكيف اثق انك لن تسرقني ؟ »

ـ « لاني صممت ان ابدأ حيـــاة جديدة ، والتمس منك ان تأتمنني . وان لم يكن لك فيّ ثقة فسأمضي في طريقي . »

فعاد الرجل ينظر الي ملياً ، ثم اشار بيـده فجلست على المقعد بجانبه وجعلت ابكي ، ان السجن يكسر شوكة الرجال .

«اشتغلت عند ذلك الرجل مدة خمس سنوات. كنت انهض باكراً للعمل وارجع منه متأخراً . لم اعاشر احداً ولا اخذت راحة. كانت رغبتي القصوى ان اشتغل للرجل الذي احببته، والذي قبلني في حين كنت منبوذاً لدى الجميع . كنت دائماً أتساءل عن سبب قبوله اياي. وسمعته ذات ليلة يتحادث وابنه . قال الولد : « ما الذي حملك على قبول هذا الرجل السجين الذي لا مروءة له ولا اخلاق ؟ انها لغلطة منك يا والدي » فأجاب الرجل : «ان يسوع يا بُني ، قبل الخطاة . ونحن تلاميذه ألا نقتفي اثره وننهج نهجه ؟ »

« وجاء الصيف فأخذنا القطيع الى اعلى الجبل وعشنا معاً في الكوخ الذي انا فيه الآن . وكأن سلام الجبل دخل قلبي وشفاني . الزهور النامية على المنحدرات ، ومشارق الشمس الرائعة ، ومغاربها البديعة كانت لي انا الخاطىء ولرفيقي القديس ، كانت لكلينا دون فرق او تفاوت . فبدأت انا ايضاً ، أؤمن بمحبة الله ورحمته .

«بعد مضي أربع سنوات دب الضعف في جسم ذلك الرجل. فقصد الطبيب مراراً ولكن دون طائل : لم ينجح فيه اي دواء . اعتنيت به مدة سنة كان ابنه خلالها يتردد اليه ويزوره. وفي نهاية تلك السنة توفي الرجل وبقيت وحدي . وقبل ان فارق هذا العالم خاطبني — كما خاطبتني زوجتي — عن محبة الله ورحمته ، وعن مغفرة الخطايا .

« بفقدانه فقدت صديقي الوحيد! وامسيت في هذا العالم وحيداً مع ان ابنه كان لطيفاً جداً معي ، ومضت ايام وجاءت ايام فصار ابنه غنياً ؛ فباع بقراته ووهبني هـذا الكوخ لاعيش فيه . عندئذ اشتريت عنزة وبضع دجاجات وجمعت امتعتي القليلة واتيت الى هنا..

« لي صديق واحد في القرية : بائع المنحوتات التي هي من صنعة يدي . وهو يوافيني احياناً باخبار عن ولديّ . غمر قلبي الفرح اذ سمعت ان احد ولديّ اصبح طبيباً ، والآخر قاجراً وانهما كليهما في نعمة ورخاء . وقيل لي انهما يجهلان اني على قيد الحياة ، وهذا افضل لهما. ليس لديّ شيء اعطيهما ، بل ان اسمي عار عليهما .

«آه! لن انسى ابداً زوجتي ومعلمي ! لقد أثرا فيّ بواسطة حياتهما وكلامهما ، فصرت اؤمن بمحبة الله ورحمته ، وبالصفح عن الذنوب .

ليس باستطاعتي ان أرد ما سلبته من النـاس لاني اجهلهم . ولكني اجدّ في عملي لاربح أموالاً. وحالما تصبح اموالي موازية للاموال التي كنت قد سلبتها في حياتي الشريرة سأفتش عمن هو بحاجة ماسة اليه، أو عن مشروع خيري لاقدمها وفاء لديني .

« تقول لي يا لوسيان انه لا سبيل لبداءة حيـاة جديدة ولكنك مخطىء في ذلك . اني قد امعنت في ارتكاب الخطايا والمعاصي اكثر جداً مما فعلته انت ، وعانيت من جراء ذلك عذاباً وآلاماً فادحة تعجز عن تصورهـا . ولكني اؤمن ان الله قد غفر ذنوبي ؛ وها أنا اقضي أيامي في العمل والكد لا في ديوني للناس . واسعى لكي اكون حسب ما يريدني الله ان اكون . هذا كل ما استطيـع عمله، وكل ما يستطيع اي شخص آخر ان يقوم به . اما الماضي فيجب ان نتركه للرب . »

وهنا نهض لوسيان مودعا الشيخ ومضى . مشى الى البيت ببطء مفكراً في ما قاله الشيخ : «ها انا اقضي ايامي...لافي ديوني للناس. وأسعى لكي أكون حسب ما يريدني الله ان اكون » . وكرر هذه الكلمات مراراً ، حتى صغر في عينه أمر الجائزة ، وشعر انه لم يعد يبالي بها . أجل ، انه لا يقدر ان يرد ساق داني ؛ لكن قد يتوفق يوما في تقديم هدية فاخرة له . صمم ان يجدّ في السلوك الحسن من الآن فصاعداً. ان امه قد اغتمت لتحطيم حصانه . اما هو فعليه ان يظهر رباطة جأش وحسن سلوك . ولعلها تنسى غمها ...

لما ترك الغابة رأى الانوار مشعة من نافذة بيته عن بعد كأنها ترحب به وتدعوه الى الراحة والمبيت . كانت رائحة اكداس الاعشاب منتشرة في الهواء ، وكان القمر يتهادى وراء اشجار الصنوبر القاتمة ، فتذكر كلام الشيخ : « مشارق الشمس ومغاربها هي للجميع ، الصالحين والاشرار » .

وأسرع مبتهجاً الى البيت وقبّل امه التي كانت بانتظاره مضطربة ، فقال يحذل : «اماه اني جائع ، هل احتفظت لي بعشائي ؟ » .

وعندما احضرت له الحساء نظر اليها ، وفي عينيه اشراق ابتسامة . فاشرق وجهها اطمئناناً .

الفصل الثاني عشر

ايقظت الشمس داني في صبـاح اليوم التالي فلبث في فراشه مدة يفكر في المباراة والجائزة . ثم نهض ونادى باعلى صوته : « أنيت ! انيت ! انزلي حالاً . اريد ان اذهب معك الى المدرسة لاشاهدك وانت تتسلمين الجائزة ! »

ومضيا الى غرفـة المعرض في المدرسة واذا بطرس ، ابن موزع البريد ، واقفٌ هناك وبريق الأمل يشع في عينيه . كان واقفاً امام محبرة خشبية منحوتة يعلوها دب ذو انف معوج . لقد بذل بطرس جهوداً في نحت المحبرة والدب ، ولكن العلة في الدب ان احدى خاصرتيه كانت اضخم من الاخرى . وعندما كان هـذا الصبي يسمع مديحاً من احد المتفرجين كانت وجنتاه تتوردان خجلاً ويحوّل وجهه عن مادحيه . آه ! كم كان فخوراً بدبه الصغير !

اما لوسيان فكان وحده كعادته لان امه لم تستطع المجيء بسبب انشغالهـا في الحقل . كان يتجول في الغرفـة وهو ينظر عابساً الى المحبرة ويقابل ذلك الدب الثقيل بحصانه الانيق .

لو لم تحصل له تلك الصدمة لكان الأولاد متجمعين الآن حوله بدلاً من تجمعهم حول بطرس . وشرع لوسيان يتأكل من الغضب والحسد فانسحب الى زاوية يرشق الجموع بسهام نظراته .

اما أنيت فكانت صامتة في وسط جماعة صاخبة من الاصدقاء . كان البعض يعتقد انها ستربح الجائزة، والبعض الآخر يؤازر جانيت. وكانت مجادلات ... وكان الجميع في ذهاب وايابٍ يتباحثون فتتصادم الآراء ، وأنيت صامتة . كان داني ممسكاً بيد والده يقفز حول المكان ويتفقد الاشغال وكان الجميع يفسحون له الطريق ويلاطفونه . ولما فرغ من مشاهدة كل المعروضات رجع الى المنضدة حيث كان شغل أنيت معروضاً ، فوقف ازاءه حتى يكون على استعداد عندما يعلن اسم رابح الجائزة. لم يكن يرى منه، وهو واقف قرب المنضدة، سوى شعره المصفرّ من الشمس. كانت عيناه الزرقاوان تبحثان بشوق.

بعد قليل فتح الباب فساد الردهة رهبة وسكوت. دخل المفتش ليتفقد الاشغال. فامسك قطعة وشرع يقابلها باخرى ويفحصها بدقة. وكان معجباً بكثير منها فقال : « كنت اتوقع معرضاً جميلاً رائعاً للاشغال اليدوية فلم يخب املي » . تراجع الأولاد وذووهم الى الوراء بهدوء ووقفوا ينظرون الى هذا الرجل الطويل وهو يبدي ملاحظاته. وبعد ان اخذ دفاتر الطلاب الموضوعة في الجانب الآخر من الردهة وفحصها اثنى عليهم جميعاً .

كان المفتش رجلاً لطيفاً طويل البال مع شيء من البطء الممل . وكان جل اهتمام الاولاد ورغبتهم الملحة ان يعرفوا اسم الفائز بالجائزة!

واتجه نحو البنات ورفع بيده شغل مرسيل وفحصه بدقة ، ثم رجع الى صدرة أنيت ووقف يقلبها بيديه . كانت الردهة آنئذ في سكون تام . وبغتة سمع بين هذا السكون صوت ولد يقول بجلاء :

« اختي صنعت هذا . »

فتطاول الرجل ينظر الى مؤخرة المنضدة فرأى وجهاً صغيراً محدقاً به بامل وشوق ولهف . فقال : «لاشك ان اختك بارعة جداً.»

فأجاب داني غير مكترث لمن حوله ولما يقولون،وجل مرامه ان تربح أنيت الجائزة : « اظن ان شغل اختي اجود الاشغال جميعاً . وانت ماذا تقول ؟ »

فبهت الرجل لاول وهلة ، ثم لم يتمالك ان قال: «اظن انه اجود شغل » . فالتفت داني ونظر الى اخته وقد احمرّ وجهها خجلاً من سلوكه الرديء ، وقال دون تردد : « لقد فزت بالجائزة ! أنيت ! فزت بالجائزة ! »

فقهقه الجميع وصفقوا لجرأته. وبهذه الطريقة غير المنتظرة أعلنت أنيت الفائزة بين البنات .

اما جائزة الصبيان فقد احرزها ابن موزع البريد. ولكن بالطريقة القانونية وذلك انه جرى بين المفتش والاساتذة تداول في المسألة وتم تبادل الآراء دون ان يصغي اليه احد من الاولاد . وبعد اعلان نتيجة المباراة أقيمت حفلة شاي قدمت فيها الحلوى والكعك على اشكالها ، وانصرف الجميع . ورجع بطرس الى البيت يحف به جمع

من الرفاق وقدموا له الشكولاته مهنئينه على فوزه . وكانت امه قد اعدت له طبقاً من المشبّك[1] فأكل بشراهه حتى مرض .

وذهب لوسيان الى السوق وحده ليبتاع الخبز . ولما رجع مر بالمدرسة فكانت ساحة اللعب مقفرة . فصعد التل بطيء الخطوات ، منحني الظهر مطرق الرأس مرهقاً تحت اثقال الهموم . وها هي شتى الافكار تجول في خاطره : ماذا جرى حتى كان بالامس شجاعاً بشوشاً هنيئاً وامسى اليوم حسوداً ساخطاً ناقماً ؟ بالامس كان راجعاً من بيت الشيخ لا يبالي بشيء ، واليوم تتأكله نيران البغض والحسد .

بالامس كلمه الشيخ عن ضرورة السعي لتتميم قصد الله في حياته .. بالامس كلمه الشيخ عن الله ، واكد له ان الله قادر ان يحوّل الارديا الى اناس صالحين اذ طلبوا منه ذلك في الصلاة . شعر لوسيان بقلة معرفته عن الله ، وقال في نفسه : قد يكون الله غاضباً علي لسوء تصرفي مع داني .

ولكن هل صحيح ان الله يحبه محبة فائقة وانه يغفر الذنوب ؟ ولكن ان كان الله يصفح فالناس لا يصفحون. وساورته غمرة من الحزن والحقد والبغض وهو يجاهد في طرد هذه الافكار ... وفجأة سمع صوت ولد يغني ، فالتفت واذا داني وميمي جالسان على حزمة من القش كعصفورين في عش. كان داني منحنياً يدندن مسروراً وعكازته ملقاة على الارض بجانبه . فتقدم لوسيان خطوات يسيرة مسوقاً الى مصدر الصوت. وفجأة توردت وجنتاه سروراً وارسل تنهداً عميقاً: كان داني قد حفر مغارة في حائط عشه، وجعل فيها تلك الحيوانات

(١) نوع من الحلوى

الخشبية التي كان لوسيان قد نحتها . فخاطب لوسيان نفسه بصوت طروب : «يظهر انها اعطته اياها ! » ثم اتجه نحو داني يسأله : «بماذا تلعب يا داني ؟ »

فقفز داني من مكانه ، ونظر نحو الصوت فرأى الولد الذي همّ ان يقتل قطته . وللحال ضمّ ميمي الى صدره ثم التفت نحو لوسيان وقال : « اذهب عني ايها الولد الرديء . »

لاحظ داني علامات الحزن والكآبة على وجه لوسيان . انه ابن خمس سنوات فقط، لكن قلبه الصغير لا يطيق ان يرى احداً كئيباً، لذلك اجابه ثانية ببشاشة: «اني العب بحيوانات نوح التي عملتها لي يد خفية . هلا علمت ان أنيت حذرتني من التكلم معك ؟ »

فأجابه لوسيان بلطف : « انا لن اؤذيك ، واني آسف جداً على ما حصل لساقك . لهذا السبب قد عملت لك هذه الحيوانات . »

— «لا، لست انت الذي عملتها. قد وجدتها وراء اكوام الحطب. وانا متأكد ان يداً خفية قد وضعتها هناك . »

وقبل ان يجيبه لوسيان بكلمة سمع صوت أنيت تنادي بغضب من باب البيت : « داني اسرع حالاً فالعشاء ينتظرك . »

وانصرف لوسيان يقول ببرارة : «انها لم تخبره» . لكنه سُر بان داني فرح بالحيوانات ولعب بها . لعله يستطيع يوماً ان يوضح لداني الحقيقة فتتأصل بينهما روابط الصداقة ! ثم مضى في طريقه بين الحقول شاعراً بشيء من راحة الضمير .

جلس داني على مقعده وقال: «أنيت ! قال لوسيان انه هو الذي نحت الحيوانات . هل هذا صحيح ؟ اعتقد ان يداً خفية قد وضعتها

وراء الحطب. أليس كذلك؟ ان لوسيان لم يقل الصدق، أليس كذلك؟»

فقالت أنيت بجدة: «قد حذرتك من الكلام مع لوسيان يا داني. لا يرجى خير من ولد شرس مثله. وسيلحق به ضرر عظيم ... »

— « اجل ! لكني لم اكلمه الا كلمة صغيرة جداً جداً. قولي لي يا أنيت ! هل كلامه صحيح ؟ هل هو الذي نحتها ؟ »

فترددت أنيت في ما عساها تجيب ، فهي بنت صادقة تكره الكذب. ولكن ان عرف داني الحقيقة فسوف يحب لوسيان ويشكره ويصفح عنه حالاً ، ثم يصبحان صديقين ، وهذا ما كانت تخافه. فأجابت بلباقة ودهاء : « انك وجدتها وراء الحطب . اذن كيف يمكن ان يكون هو صانعها ؟ لا تكن غبياً يا داني . »

— «اذاً كيف يقول لوسيان انه هو الذي صنعها؟ انا اظن ان يداً خفية صنعتها . أليس كذلك يا أنيت ؟ »

فأجابت أنيت باضطراب : « اف منك ! لا أعلم !.. يا لك من ثرثار ! اشرب الحساء قبل ان يبرد . »

فامتثل داني للامر... اما الجدة فسددت نظرات حادة على أنيت. سمعت عن الحيوانات وتعجبت من وجودها وراء الحطب... واحمرت أنيت عندما رأت جدتها تنظر اليها بجدة ، فأسرعت الى الموقد متظاهرة انها تسكب الحساء في صحنها لتأكل . ولم تضع الا مقدار ملعقتين لانها لم تكن جائعة ان اليوم الذي طالما انتظرته بفارغ الصبر وبالغ الشوق اضحى مصدر تعاسة لها وكآبة ! والجائزة التي تاقت لنيلها لم تزدها الا حزناً .

الفصل الثالث عشر

حلّ فصل الخريف فرجعت القطعان من الجبال الى حظائرها . وكان القطاف فراحت أنيت تجر داني بعربته الى الأشجار ليجمعا البندق في السلال . كان داني ينمو يوماً فيوماً مما اضطر الوالد ان يوصي الاسكاف بحذاء جديد لولده . ودخل داني مدرسة الأطفال فكان يذهب اليها كل يوم . وكان اثنان من كبار الصبيان يجرانه على العربة ويعودان به الى البيت مساء . وكان الأب يدفع لهما ، كل اسبوع ، عشرة فرنكات .

ومضت بضعة اسابيع واذا بعيد الميلاد يطل من جديد ! كانت الثلوج تتساقط بكثرة . فأخذ الأب يجرف الثلج من امام بيته ليفتح ممراً لطريق الزلاجة . وتوقف النهر عن الخرير وكفّن البرد مياهه بالجليد. وعلى اغصان الأشجار تدلت مسلات الجليد تتألق كالجواهر.

كان داني في ذلك اليوم متكئاً على ركبتي جدته . فشخص اليها ببصره سائلاً: «ماذا استطيع ان اهدي للطفل يسوع في يوم مولده؟»

فتوقفت الجدة هنيهة عن الحياكة ثم قالت : « تستطيع ان تقدم له ذاتك . وبوسعك ان تطلب منه ان يصيّرك محباً ومطيعاً . »

وحاول داني ، طول نهار العيد ، في ان يكون محباً ومطيعاً لكي يرضى الطفل (يسوع) في ذكرى مولده . وتدفقت محبته على الجميع: ساعد جدته في ترتيب علبة الخياطة واخته في تنشيف الصحون . وتوجه الى الحظيرة عند العصر فزار البقرات واحدة واحدة ، وهمس في اذن كل منها تحية العيد . وعند المساء جثا ليصلي ، فهمس قائلاً : «ايها الطفل ، الرب يسوع ! اليك اهدي تحياتي في ذكرى مولدك ، وارجو ان تتقبل مني هديتي . »

آه ! ما كان اسعد داني في ذلك اليوم ! ولما حان وقت الذهاب الى الكنيسة في الليل كان مشرقاً بالبِشر والسرور ، طافح القلب غبطة ! كان المكان غاصاً بالاولاد وقد ارتدى جميعهم ازهى الثياب. وها هم الآن شاخصون الى شجرة الميلاد وملء عيونهم الدهشة والعجب ! شجرة مشعشعة بالانوار ، مزدانة باكاليل البرتقال والواح الشكولاته والدبابة المطيبة بالزنجبيل . فرح داني لوجوده في الصف الامامي يشاهد الشجرة بكاملها ولا يخفى عليه شيء مما وراء المنبر .

وتصاعدت من القلوب صلوات حارة ، وتطايرت في ارجاء الكنيسة نغمات الترانيم الميلادية الشجية . ثم ساد سكوت حين صعد القسيس الى المنبر . كان هذا شديد الغيرة على رعيته المشتتة ، محبوباً لدى الجميع . ولحيته البيضاء جعلت داني يظنه بابا نويل .

نظر القس الى الجمع الماثل امامه : انه ليحبهم جميعاً ويعرفهم

باسمائهم واحداً واحداً . كان طاعناً في السن ؛ ومن يعلم، فقد تكون هذه رسالته الاخيرة !طلب من الله ان يلهمه كلاماً يفيد به المستمعين. اما أنيت فكانت تسمع قصة الميلاد وفكرهـا مشتت منشغل بامور اخرى . ولم تنتبه الا عندما سمعت القس يردد العبارة التالية : « لم يكن لهما موضع ... لا موضع لهما ... لا موضع ليسوع ... » ردد القس هذه الكلمات عدة مرات بتأن وحزن؛وكم تمنت أنيت لو كانت آنذاك في بيت لحم لتفتح له الباب بسرعة !

ثم تابع القس كلامه يقول : « ومع هذا ، فان المخلّص ما يزال واقفاً امام ابواب مقفلة ، أمام قلوب لم يتهيأ له فيهـا موضع بعد ! اسمعوا ما يقول : هانذا واقف على الباب واقرع . ان سمع احد صوتي وفتح الباب ادخل اليه ... »

«وانت ماذا تريد ان تفعل به في هذا العيد ! اتفتح له الباب أو تتركه خارجاً ؟ أتريد ان يقال عنك : لم يكن له عندك موضع ؟ »

وفكرت أنيت قائلة : « اود ان اطلب منه ان يأتي الى قلبي ، ولكن لا أعلم ما يعني هـــذا . قال القس يجب ان نطلب من يسوع ان يدخل قلوبنا . ولكن هل بامكاني ان اطلب منه ذلك ؟ »

والتفتت أنيت حولها لترى مدى تأثير هـــذه الآية المقدسة في الآخرين . وفيما هي تتأمل الجموع لمحت لوسيان جالساً مع امه واخته في الجانب الآخر من الكنيسة . اذ ذاك تحققت ان ليس بامكانها ان تطلب من المخلّص ان يدخل الى قلبها ما دام هذا القلب مملوءاً بغضاً للوسيان . وكيف يدخل المخلّص الى قلب غضوب حقود ؟ فاما ان تصفح عن لوسيان وتكون لطيفة واما ان يبقى المخلّص خارجاً !

لم تكن بعد مستعدة للصفح والغفران . ثم هناك أمر آخر : ألم تحطّم الحصان الخشبي الذي صنعه لوسيان؟ ألم تحمل الناس على الظن بان القطة هي التي حطّمته ؟ ألم تكن ، بفعلتهـــا الشنعاء ، سبب حرمان لوسيان الجائزة ؟ فان دخل الرب يسوع الى قلبها فلا بدّ ان يناقشها الحساب ! ولذلك لم ترد ان تصغي الى صوت ضميرها .

انتهت العظة ولكن انيت ما زالت منهمكة في البحث عن طريقة لتريح ضميرها .

وسمعت دمدمة بين الجموع عندمـــا تقدم الصغار الى الشجرة ليأخذوا دببتهم . كان الحطّاب فيليب هو القـائم بتوزيع الدببة . فأقبل داني واشار بيده الى الدب الضاحك في أعلى الشجرة وهمس : « ارجوك يا سيدي اعطني ذاك الدبّ ، الدبّ الذي في أعلى الشجرة. اني افضله على سائر الأشياء . »

فاسرع السيد فيليب وافسح الطريق ، واوقف الأولاد بعيداً ، وانزل الشموع القريبة . واذ رأى عكازة داني ومنظره المؤثر ، اراد ان يلبي رغبة قلبه . ورفع يده ، وبعـد محاولات كثيرة تمكن من انتزاع الدبّ وتسليمه لداني . فضمه هـــذا الى صدره ورجعوا الى البيت وسط الثلوج ترعاهم انوار النجوم. وكان داني ينظر الى دبه من آن الى آخر ويبتسم ، وكأن بينه وبين الدبّ شؤوناً واحاديث خفية..

وفي مساء ذلك اليوم نام داني نوماً هنيئاً . وجلست أنيت قرب الموقد مع جدتها التي كانت تحوك جوارب من صوف ابيض لحفيديها. اما أنيت فكانت تصلح مئزرهـا الذي سقط من يدها الى الارض

مرات وهي ساهية عن عملها مطيلة التحدق امامها . قالت الجدة فجأة : « أنيت ! هل كنت سعيدة في العيد ؟ »

فأجابت أنيت بملل : « نعم يا جدتي . ولكن ما معنى هذه الكلمات يا جدتي : ان يسوع يقرع على باب قلوبنا ؟ »

فوضعت الجدة حياكتها جانباً مستجمعة حواسها واجابت : «معناها ان المخلّص رأى اخطاء كثيرة في حياتك ، وافكاراً مظلمة فأتى الى العالم وصلب حتى يحتمل قصاص هذه الأعمال السيئة والشرور عوضاً عنك . ثم قام من الاموات ليستطيع ان يدخل الى حياتك ويحيا فيك ويطرد عنك هذه الافكار المظلمة والاخطاء والشرور ويضع عوضها افكاره الصالحة . المحبة مثل ذلك الانسان الذي يقرع على باب بيت تعلوه الاقذار والغبار ويشمله الظلام . يقرع ويقول : « ان كنتِ تفتحين لي وتدخلينني اليك فسأنزع القذر والغبار وابدّد الظلمة ، واجعل البيت جميلاً بهجاً . لكن تذكري انه لا يقتحم طريقه اقتحاماً بل يستأذن عند الدخول. وهذا معنى «يقرع الباب». فعليك ان تقولي : نعم ايها الرب يسوع اني بحاجة اليك ، واريدك ان تأتي وتحيا فيّ ، وهذا معنى «يفتح الباب» . »

فشخصت أنيت الى جدّتها طويلاً . ثم اقتربت منها ووضعت رأسها على ركبتها وسألت: «يا جدتي ، اذا كنت تبغضين احداً فهل باستطاعتك ان تطلبي من يسوع ان يدخل ؟ »

— نعم ! ووجود البغض في قلبك دليل على حاجتك الماسة ان تطلبي منه ان يدخل . بمقدار ما تكون الظلمة شديدة في الغرفة تكون حاجتها للنور أشدّ . »

– « ولكن ليس باستطاعتي ان اكف عن بغض لوسيان . »

– « اصبتِ ! لا احد منا يستطيع ان يكفّ عن الشر ، وان يطرد عنه الافكار الرديئة . وعبثاً نسعى وراء ذلك . لكن اصغي يا انيت : لنفترض انك نهضت عند الصباح من الفراش واتيت الى هذه الغرفة فوجدت الغرفة مظلمة لان النوافذ مقفلة ، فماذا تفعلين ؟ هل تقولين : يجب عليّ ان اطرد الظلمة اولاً ثم افتح النوافذ لكي تدخلها الشمس ؟ هل تضيعين الوقت في طرد الظلام ؟ »

– « طبعاً لا . »

– « اذن كيف تطردين الظلام ؟ »

– « ينقشع الظلام بمجرّد فتح النوافذ ... »

– « ولكن ماذا يحل بالظلام ؟ »

– « الظلام يزول عندما يدخل النور . »

« هذا تماماً ما يحصل عندما تطلبين من الرب يسوع ان يدخل الى حياتك : انه المحبة بذاتها. وعندما تدخل المحبة تطرد البغضاء ومحبة الذات والفظاظة ، كما ان نور الشمس عندما يدخل الغرفة يطرد منها الظلمة . ولكن ان حاولت طردها بنفسك تكونين كمن يحاول طرد الظلام من غرفة مظلمة . ولا يخفَ عليك ان ذلك مضيعة للوقت . »

لم تجب أنيت بكلمة بل شخصت الى الحائط هنيهة والتقطت مئزرها عن الأرض متنهدة ، وجعلت تشتغل بسكوت . وبعد قليل نهضت وقبّلت جدتها مودعة اياها وذهبت لتنام . ولكنها لم تجد الى النوم سبيلاً ، فظلت تتقلب في فراشها مفكرة متأملة ومتسائلة: «ان

جدتي لم تفه الا بعين الصواب ... ان طلبت من الرب يسوع ان يدخل الى قلبي فينبغي ان ألاطف لوسيان وابذل له المحبة الخالصة ، وهذا ما لا اريده . وينبغي لي ان اخبر لوسيان عما فعلت بحصانه الخشبي وهذا ما يستحيل عليّ فعله . فما عليّ الا ان اتناسى «القرع». ولكن كيف تهنأ حياتي وانا غارقة في غمار التعاسة ؟ »

كانت تجهل بعدُ ان من يغلق باب قلبه في وجه يسوع يغلقه ايضاً في وجه السعادة . وفكرت في ان تتناسى كل شيء وتسعى لايجاد طريقة اخرى تجعلها سعيدة . فادارت وسادتها الى الجهة الاخرى وصارت تعد في مخيلتها قطعان المعزى تسرح في المراعي حتى نامت .

رأت في الحلم بيتاً نوافذه مقفلة وبابه مغلق بمزلاج. ثم جاء شخص في الليل وجعل يقرع الباب بصبر وهدوء ولكن لم يكن هناك من مجيب . وجعل يتلمس المقبض، فلم يكن للباب مقبض. وكانت الرياح تعصف وتزأر ، والسحب تتسابق امام القمر . ورغماً من العواصف والرياح والامطار ظل الرجل واقفاً يقرع ويقرع ويقرع . واستمرّ في ذلك حتى افاقت انيت من نومها ، وكان الرجل ما يزال يقرع ، ولا احد يجيب ولا احد يفتح . وكان البيت ما يزال مظلماً . فقالت أنيت وهي مأخوذة بالنوم: قد يكون هذا المكان خالياً من السكان! ثم تذكرت ان البيت مأهول وتأكدت ان سكان ذلك البيت لا يريدون ان يقتربوا من الباب ويفتحوه .

اثر فيها هذا الحلم المكرب ، واصبحت في حيرة وضيق. وما ان ارتدت ملابسها ونزلت للفطور حتى وجدت الجميع في اضطراب لان

داني اضاع قطته ميمي وابى ان يأكل قبل ان يجدها . وكان يبكي على فراقها ويقول : «انها دائماً توقظني في الصباح . تأتي الى سريري وترسل خريرها الناعم. اما اليوم فلم تأتِ. خرجت ليلة امس ولم ترجع.»

كان حزن داني صدمة للجميع . فاسرع الأب يفتش عنها في مخازن التبن . واخذت الجدة تقلب المطبخ ظهراً لبطن . وداني بحث عنها في اماكن ليس من المعقول ان تكون فيها . وصعدت أنيت الى الطابق الاعلى لعلّها تجدها في غرف النوم. ولكن عبثاً تَعِبَ الجميع.

رفض داني ان يأكل لزعمه ان ميمي جائعة . واستسلم للبكاء والعويل ، تتساقط دموعه في وعاء الشوربا. ولم يكن باستطاعة احد ان يعزيه . واقترب الأب من داني يمسح دموعه ويقول له : سوف ترجع . لقد ذهبت لتختبىء عنا وتلاعبنا .

كانت الشمس محتجبة وراء الغيوم الدكناء التي غطت الجبال . وجعلت السماء تندف بثلوجها فلبس الأب قبعته واخذ زلاجته واسرع ليجلب الحطب. اما الجدة فنامت على كرسيها قرب الموقد . واقترب داني من انيت واتكأ رأسه عليها، وجعل ينظر اليها ويقول بكآبة: انيت ، اريد ان اذهب الى الفراش .

— « لماذا يا داني ؟ ما نزال في اول المساء ... وكيف تنام ولمّا تتعشّ بعد ؟ »

— « اريد ان اذهب الى الفراش ، أنيت ، حتى اجد وقتاً لتلاوة صلاتي . »

فأجابت أنيت ضاحكة: «لا لزوم ان تذهب الى الفراش لتصلي.

تقدر ان تصلي الآن ، ثم تتعشى . وبعد ذلك تذهب الى النوم كعادتك . »

فألح داني قائلاً : « اريد ان تكون صلاتي مستوفية الشروط واريد ان اتلوها بقميص النوم. ارجوك أنيت! خذيني الى الفراش.»

فأجابت أنيت وهي تفك ازرار صدرته : «لك ما تريد. ولكن اعلم انه لا فرق ان صليت بقميص النوم او باية ثياب اخرى . »

ثم قبلته وقلبه يقطر حزناً وفمه يرتجف بالبكاء . وبعد ان وجد نفسه آمناً بقميص نومه الابيض النظيف ، جثا قرب سريره وضمّ يديه وصلى قائلاً : « ارجوك ايها الرب ، احفظ ميمي من المخاطر . ارجوك ان تفتش لي عنها وتردها لي سريعاً . لا تسمح ان تصاب ببرد او جوع ، ولا تدع الخوف يساور قلبها . أرجوك ، أرجوك استجبني ، آمين . »

وهنا سألته انيت : « ألا تريد ان تصلي لأجل شخص ما ؟ »

ـ « لا، ليس هذا المساء ، لاني لا اريد ان يهتم الرب هذه الليلة سوى بميمي. » واضاف قائلاً: «صلي انت يا اختي لأجل الآخرين .»

وبعد ان أوكل داني الى الآب السماوي شأن ميمي ، صعد الى سريره بقلب مطمئن وجعل يده تحت خدّه . وقبل ان يغمض عينيه نادى اخته : « أنيت ، لا تنسي ان توقظيني عندما تأتي . »

ـ « تأتي ، مَن ؟ »

ـ « ميمي طبعاً . وبهذه الكلمات غرق في النوم . »

جالت أنيت في الغرفة قلقة . لم تخرج من البيت في ذلك النهار ولذلك ضاقت انفاسها وشعرت بحرارة في وجنتيها ففتحت الباب وخرجت الى الرواق . لقد توقف الثلج عن النزول وها هي الريح الغربية تلثم وجنتيها الحارتين . فعزمت ان تتنزه قليلاً قرب النهر لعلها تلتقي بميمي . وارتدت معطفها وانطلقت .

كان القمر بدراً . ولما وصلت أنيت الى مرتفع من الحقل نظرت وراءها على الثلج فرأت اقدامها ، فتذكرت الحلم وتذكرت الرجل الذي كان يقرع ويقرع . .

الفصل الرابع عشر

قطعت انيت مسافة كبيرة ، واخيراً وصلت الى الجسر الصغير القائم فوق النهر ، وقد تدلّت على قضبان ذلك الجسر مسلات الجليد. كان النهر في سكون . ولولا خرير المياه الجارية ببطء في قعر الوادي لما شعرت بوجود النهر .

واذ كانت أنيت غارقة في تأملاتها،لم تلاحظ صفحة الجليد الممتدة تحت الثلج الناعم.وزلقت رجلها فاندفعت الى الامام صارخة متوجعة من ألم رجلها . فاستلقت على الثلج مدة قصيرة دون حراك.ثم حاولت النهوض، ولكنها عادت فهبطت الى الارض تصرخ متألمة . لقد التوى كعب رجلها ولم تعد تستطيع القيام .

شعرت بخوف شديد ووحشة . انها منقطعة عن الناس ، ولا يمر احد في الليل بذلك المكان المنفرد . وكان البرد يشتد اكثر فأكثر ؛ وكانت الفتاة تخاف من ان تضطر الى البقاء في تلك الفلاة طيلة الليل فتموت من شدة البرد. ثم تذكرت ان هناك بيتاً يسكن فيه حطّاب

شاب مع اسرته. فان استطاعت ان تزحف اليهما زحفاً فلا شك انهما يسعفانها ويعودان بها الى بيتها .

باشرت في الزحف وهي تتألم وتجرّ رجلها وراءها متوجعة من ادنى اهتزاز . لم يمض وقت طويل حتى شعرت بوهن عظيم . كانت يداها تغطسان في الثلج ، والدموع تسيل من عينيها . هل من وصول الى ذلك المكان ؟

ولما قربت من منعطف الطريق حيث الغـــابة قائمة استبشرت بنور ضئيل رأته بين الاشجار . وأيقنت انها غير بعيدة من البيت . ولكنها لم تعد تملك القوة على مواصلة الزحف . فجلست على كومـة من الثلج لتستريح ، فشعرت ببرد شديد وتحاملت على نفسها وظلت تجـاهد .

كانت تقترب خطوة فخطوة، حتى مست اخيراً درج ذلك الكوخ الصغير. ونادت بصوت منخفض آملة ان يأتي احد ويحملها الى الداخل؛ ولكن لم يكن من مجيب . ضاعفت جهودهـا ووصلت الى البـاب وهبطت على العتبة وقد اعياها التعب والألم الشديد .

ثم مدّت ذراعها وقرعت الباب فلم يجبها احد . ما أشبه البيت في صمته بالثلج والغابات الموحشة .

حاولت مرة اخرى ان تقرع بكل قواها، ولكن لم يكن يجيبها سوى صدى ضرباتها على الباب . لا حركة في البيت ولا نأمة .

فانتصبت على رجل واحدة تختلج خوفاً وهياجاً ؛ وجعلت توالي الضربات وتصرخ باعلى صوتها وتقرقع بالمزلاج . اخيراً بانت لها الحقيقة

فسقطت على الأرض وانفجرت تبكي مرتعدة : الباب مقفل ، والبيت فارغ . وهذا النور ما هو سوى مفزعة للصوص .

في تلك اللحظة اعتراها رعب شديد . فهي بنت الجبل، وتعرف مخاطر الثلوج . وقد سمعت عن كثيرين جمدوا وماتوا في الثلج .

اخيراً جمعت فكرها وتشدّدت...لا بد ان في نية سكان الكوخ العودة ، والا لما تركوا المر مضاءً . ولكن ان كانوا قد ذهبوا الى القرية فلا بد من ان يطول رجوعهم .

وكان البرد لاذعاً يخترق اللحم والعظم . ففكرت ان تأخذ قسطاً من الراحة ثم تقصد الى كوخ آخر . لكن ذلك الكوخ بعيد جداً ، واكوام الثلج لا تزال لينة وكثيفة. ونظرت الى القفر امامها بقنوط. كان النهر والغابة عن يمينها ، والى يسارها الحقول ومنحدراتها فتذكرت حلمها مرة اخرى .

ثم بدا لها امر آخر: لقد اختبرت لاول مرة شعور من يقرع على باب مقفل . انها لم تقرع سوى بضع دقائق ، واما الرب يسوع فما يزال يقرع منذ سنين طويلة . لقد توقفت عن القرع لانها تيقنت ان البيت فارغ . ولكن لنفرض ان اصحابه كانوا فيه كل تلك المدة ، وسمعوا وهي تقرع في الليل خارجاً ، ثم نظروا بعضهم الى بعض وقالوا : « يوجد شخص في الباب يقرع ولكن لا نريد ان يدخل ؛ فلنتصرف كأننا لم نسمعه.» أفلا يغضبها ذلك؟الا تحقد عليهم وتنبذهم؟

هكذا كانت هي تعامل الرب يسوع ، ومع ذلك فهو لم يبغضها؛ بل كان ما يزال يحبها كثيراً اوالا لما استمرّ يقرع راغباً في الدخول

واوشكت ، بتأملاتها هذه ، ان تنسى فزعها ووحشتها . واذا بها تسمع صوتاً فتنصت: لقد سمعت صوتاً مألوفاً يعرفه كل اولاد الجبل : صوت زلاجة وصوت ولد يغني ... وبعد برهة ظهرت هيئة ولد على مرأى منها يتجه نحو الوادي بعد ان دار الى منعطف الطريق. حينئذ انتصبت أنيت على ركبتيها وصاحت باعلى صوتها : «اسعفني اسعفني، قف رحماك ، وساعدني». ثم وضعت يدها حول فمها كالبوق وصاحت ايضاً: «قف ! ارجوك ان تقف وتسعفني.» وللوقت توقف الولد وفكّ عنه الزلاجة واسندها الى شجرة ، ومشى نحو الصوت يسأل : «ماذا جرى ؟ من المستغيث ؟ هل لحق بك اذى ؟... »

كان هـذا الولد هو لوسيان . وكان راجعاً من زيارته لصديقه الشيخ . فجفل عند سماع صراخ أنيت . ولما رآها جاثية هناك في ضوء القمر ، وقف مبهوتاً كأنه امام شبح .

اما أنيت ففرحت جداً بان ترى في ذلك المكان الموحش احداً يساعدها . لم تذكر شيئاً عن ذاك سوى انها كانت هالكة فانقذت . كانت تنظر الى ذاك المنقذ كأنه ملاك آتٍ من السماء! فمدّت له يدها وامسكت بمعطفه، كأنها خشيت ان يهرب منها ، وصرخت وفي صوتها خلجة : « لوسيان ! آه كم انا مسرورة فيك! قد آذيت رجلي ولا استطيع المشي . حسبت اني سأموت من الجليد قبل ان يرجع اصحاب الكوخ . أتستطيع ان تأخذني الى البيت يا لوسيان ، فاني ارتجف من البرد . »

وما هي الا لحظة حتى كان معطف لوسيان السميك حولها، وهو

منحنٍ امامها يفرك يديها الباردتين ويقول لها بلطف : « لا يمكنني ان آخذك على الزلاجة يا أنيت لانك كبيرة . لكني سأسرع الى البيت في خمس دقائق ، ثم اعود اليـــك بالزلاجة الكبيرة ودثار سميك ، واوصلك الى كوخك باقل من نصف ساعة . »

وفي داخله كان قلبه دافقاً بالفرح العميم : كيف لا وقـد تحقق حلمه ، وسنحت له فرصة ممتازة لاسداء خدمـة لأنيت وهي بأمس الحاجة اليه !.. قد تصفح الآن عنه وتنسى ذلك الخصام الهائل ...

قالت له أنيت بصوت خافت ينمّ عما فيها من عياء : « ألا تبرد بدون معطف يا لوسيان ؟ »

فما كان منه الا ان خلع سترته ايضاً بسرعة ولفها حول رأسها . وكم كان يود لو يعطيها اكثر من ذلك ليقيها شر البرد القارس !

وانطلق لوسيان كالسهم . وكان الهواء يلذع جسمه ويؤلمه، ولكن صدره ما يزال عامراً بالسرور. وفي دقائق معدودات كان امام بيته، فقابلته امه بالتوبيخ والتـأنيب حين رأت ذراعيه العـاريتين وانفه المزرق من البرد .

اما أنيت فكانت ملتفة بمعطف لوسيان الدافىء ، وهي على أحر من الجمر . سيعود بعد ربع ساعة !

وساورتها افكار شتى...لقد افلتت من براثن الموت، واصبحت نجاتها اكيدة. جاء لوسيان اليها في الوقت المناسب وسمع صراخها... وراحت تفكر في المخلص الحبيب الذي لم تشأ ان تدخله الى قلبها . ذلك المخلص لم يتركها وشأنها ولم يهملها كما ظنت، بل اهتم بها، وارسل لها لوسيان لينقذها .

لقد اختبرت معنى الابواب المقفلة، مع انها لا تعرف تماماً ما يحصل عندما تفتح قلبها للرب . لكنها صممت ألا تترك المخلص خارجاً . واسندت رأسها الى درابزين الدرج وأغمضت عينيها وصلّت قائلة :

ايها الرب يسوع ! اني افتح قلبي لك الآن . انا آسفة اني تركتك خارجاً مدة هكذا طويلة، وارجوك ان تدخل اليه. انا آسفة لحقدي على لوسيان فارجوك ان تجعلني احبه . واذا كان واجبي ان اخبره عن حصانه الصغير فاعطني الشجاعة لاعترف له بفعلتي الشنعاء . أشكرك لأنك ارسلت لوسيان لنجدتي . آمين .

وهكذا ، بعد ان طال وقوف الرب يسوع خارج الباب زمناً طويلاً، انفتح له قلب أنيت، فدخل اليه ليغفر خطاياها ويغيّر حياتها.

لم يكن هناك احد ليرى الامر العجيب الذي حصل . ولا أنيت نفسها شعرت بتغير فيها ! ولكن في السماء ، تلك الليلة ، كتب اسم أنيت في سفر الحياة ، وتهللت الملائكة في الأمجاد لأن ولداً آخر على الأرض فتح قلبه وهيأ مكاناً فيه للمخلص يسوع .

الفصل الخامس عشر

شعرت أنيت ان قلبها يخفق بسرعة فجعلت تتفرس في السماء المرصعة بالنجوم ، وفي الجبال الشاهقة . وازاء الاطواد الشامخات صغرت في عينيها مخاوفها وهواجسها .

وظهرت هيئة شخص صغير يركض حول منعطف الطريق يجر زلاجته وراءه ويلهث من شدة تعبه. وما ان وصل حتى قال: «اسرعي يا أنيت ؛ وقد جئت بالزلاجة الكبيرة وسنصل الى البيت بعدد قائق.»

ورفع يده ليساعدها على النهوض، ولكنها تراجعت وقالت بصوت يرتجف : « انتظر قليلاً يا لوسيان ! اريد ان اخبرك امراً قبل ان نذهب الى البيت. لوسيان! ليست القطة هي التي حطمت حصانك ذلك اليوم بل انا . وقد فعلت ذلك عن قصد لأني لم أشأ ان تربح الجائزة بسبب ما فعلت بداني . انا آسفة يا لوسيان للغاية على ما بدر مني .»

وقف لوسيان يحدق بها وقد استولى عليه السرور والدهشة وشعر بارتياح عظيم في قلبه. ان أنيت قابلته بسوء الفعل، ولذا يسهل عليها

ان تسامحه اذا طلب الصفح منها . صحيح ان تحطيم حصان خشبي أيسر جداً من كسر ساق ولد صغير ؛ ولكن فعلتها قربتها الواحد من الآخر . ومع ذلك عجز لوسيان ان يعبر عما يختلج في صدره من هواجس، ولذا ضحك خجلاً وقال: «لا بأس يا أنيت، لا تهتمي. اجلسي في الزلاجة . » ثم لف المعطف حولها بضبط وجلس امامها . ونزلا الجبل مسرعين فوصلا الى البيت ونديف الثلج متناثر عليهما .

صعدت أنيت الدرج على يديها وركبتيها ، ووقفت على رجل واحدة امام الباب. لقد فتحت باب قلبها لمحبة الرب يسوع وهذا يعني ايضاً ان تفتحه للوسيان «لأن محبة الرب لا تترك أحداً خارجاً » .

ففتحت البـــاب على مصراعيه ونادت لوسيان قائلة : « تقدم يا لوسيان : ادخل وشاهد جدتي . انها ستسر بك جداً . »

نهضت الجدة تصرخ فرحة . فلقد كانوا قلقين جداً لغيابها وذهب الأب الى الجبل ليفتش عنها . وفتحت فاها لتؤنبها ، ولكنها كفت عن ذلك حين لاحظت ان البنت تعرج . فساعدتها واجلستها على المقعد . وذهبت لتحضر لها العصائب . وفيما كانت ذاهبة لاحظت لوسيان واقفاً خجولاً مترددا على العتبة . وتلاقت نظراتهما ... ان الجدة قليلة البصر نيرة البصيرة ، وبوسعها ان تقرأ ملامح الاولاد كما في كتاب مفتوح . رأت في عيني لوسيان توبة صادقة واستغاثة وحياء وشجاعة لم ترَ مثلها في أي ولد آخر. فالقت يدها على كتفه وجذبته الى الموقد حيث الدفء والنـــار الملتهبة وقالت بحزم : « مرحباً بك يا ولدي ! هلم أجلس وشاطرنا الأكل . »

وفتح الباب ثانية ، ودخل الأب ينفض الثلج عن ثيابه . لقد عرف ان أنيت سالمة ، لانه رأى الزلاجة من بعيد وخيال ولدين يقطعان بها الحقول . ولما سمع قصتها وبخها لتوغلها في الغابة في ليلة كهذه ، ثم جلس هو ايضاً امام الموقد معهم . وأحضرت الجدة الكاكاو الساخن والخبز المدهون بالزبدة . فأكلوا بشهية لا ينبسون بكلمة .

وشعروا بالنعاس قرب الموقد الدافىء ، بعد هواء الليل البارد . اما لوسيان فكان ينظر الى اللهيب بارتياح متمنياً ان تدوم هذه الساعة الى الأبد . وبغتة قاطع السكون صوت خمش على الباب ، فصاحت أنيت : « هذه ميمي » . وقفزت الى الأمام لكن رجلها آلمتها . قام الأب والجدة ولوسيان وفتحوا لها الباب .

مشت ميمي داخل الغرفة وذيلها منتصب بعجب الى فوق حاملة بفمها قطةوليدة الساعة لا تزال مغمضة العينين.لم تعبأ باحد في الغرفة ، بل مشت رأساً الى سرير داني الصغير حيث كان نائماً ، وقفزت على فراشه الريشي . هناك القت حملها الثمين قريباً جداً من رأس داني الذهبي. ثم أسرعت الى الباب تموء فقال الأب عندما فتح لها الباب: « انها ستأتي بقطة اخرى . »

فقالت الجدة : « اذن لنترك لها الباب مفتوحاً . »

وجلسوا جميعهم يرتجفون من مجرى الهواء البارد الى ان رجعت ميمي بسرعة ووضعت قطة ثانية بيضاء بجانب الاولى ، واسرعت في الظلام . فكرت الجدة بمجرى الهواء ، ومن جهة ثانية بالسكنى مع ثلاث قطط في البيت الصغير فقالت: « لعلّ هذه تكون الاخيرة. »

لم يقل احد شيئاً لأن عيونهم كانت شاخصة الى الباب . ان قطة داني مسموح لها ان تعمل ما تشاء دون معارضة . رجعت ميمي من وراء المخزن ، وكانت تمشي هذه المرة بجلال وعلى مهل . فقد اكملت مهمتها وكانت تحمل بفمها قطة ثالثة صغيرة ناصعة البياض مثلها . فجمعت بمخالبها جراءها الثلاثة واستلقت على صدر داني تلحسها وتهدر مهللة لها. فقالت الجدة متنهدة بارتياح : «يا لوسيان اغلق الباب. يجب ان نجد سلة نضع فيها هذه الجراء لئلا يتضايق منها الولد فيختنق .»

قال الأب: «لا بأس اذا بقيت الليلة حيث هي ، فالقطة تعرف من يرحب بها . اما من جهة داني ، فلا يهمه الامر ولا ينزعج »

ومضى الأب وازاح بلطف مخالب ميمى عن ذقن داني ، ثم ذهب ليقفل باب الزريبة. فنهض لوسيان وتقدم من الجدة وقال: استأذنك بالذهاب واشكرك جدّ الشكر ، لانك سمحت لي بالدخول . ارجو أن تتعافى أنيت تماماً وعاجلاً !

فنظرت الجدة الى وجهه واخذت يده بكلتا يديها وقالت : « يمكنك ان تذهب ، ولكن يجب ان تأتي فتزورنا ثانية وثالثة . جميعنا نرحب بك يا بني ! »

كانت أنيت قد وعدت داني ان توقظه متى رجعت ميمي. ولكنها لم تبح بشيء لجدتها ، لعلمها انها لا تستحسن ذلك . لهذا السبب انتظرت حتى ذهبت الجدة لتغسل فناجين الكاكاو ، فقفزت الى جانبه وهمست : « داني » وهي تداعب شعره الرطب . فتنهد داني ورفع ذراعه فوق رأسه، ولكنه لم يفق . فنادته ثانية بصوت أعلى،

وضغطت على يده ففتح عينيه وتفرّس بها فقالت : انظر داني ! لقد رجعت ميمي وجلبت لك هدية .

فنظر داني الى كومة الفراء بين ذراعيه غير عالم أنائم هو أم يقظان؛ فقال والنعاس غالب عليه: «يظهر انها وجدت ثلاثة فئران.»

— «هذه ليست فئراناً. انها ثلاث قطط صغيرة جميلة، قد وضعتها في مخزن التبن ، والآن أتت بها اليك . هدية لك من ميمي .. »

— « عرفت انها ستأتي . طلبت من الله ذلك . »

فجثت أنيت قرب السرير وضمّت اخاها المحبوب الى صدرها وهمست :

— « انا طلبت من يسوع ان يدخل الى قلبي فدخل . ما اجمل الصلاة التي يصدرها القلب باخلاص ! »

ولكن داني لم يسمع ما قالت اخته . فقد غرق في النوم وطرف ذيل ميمي في فمه .

الفصل السادس عشر

استيقظت أنيت في الصباح ، وقد خفّ ألم رجلها وزال عنها الورم ، ولكنها كانت تشعر ببعض الألم حين تهم بالمشي .

وتساقط الثلج بغزارة في الليل وتكاثف جداً حتى اضطر الأب الى جرفه عن الممر المؤدي الى الزريبة . لذا لم يكن النهار صالحاً للخروج ،فبقيت انيت وداني وميمي وجراؤها الثلاثة الصغيرة يلعبون في غرفة الجلوس ، وقد حولوها الى زريبة حيوانات .

واشارت الجدة ، بعد الغداء ، ان يذهبوا جميعاً الى مخزن التبن ويلعبوا هناك . فحمل داني عائلته الجديدة في سلة وجعل لقططه أعشاشاً بين التبن، واخذ يقلب رجليه فوق رأسه ويلعب بينما تمددت أنيت بارتياح وامسكت بيدها نسخة الكتاب المقدس الضخمة التي لجدتها وشرعت تقلب منها الصفحات .

كانت تفتش عن الآية المقدسة التي تتكلم عن يسوع قارعاً على الباب ، وكانت تريد ان تتعلمها غيباً. كانت تعرف ان الآية موجودة في آخر سفر من الكتاب المقدس –اي سفر الرؤيا– الاصحاح الثالث

والعدد العشرين: هانذا واقف على الباب واقرع. ان سمع احد صوتي وفتح الباب ، ادخل اليه واتعشى معه وهو معي .

تعلمته أنيت جيداً واستطاعت ان تقوله غيباً،ولكنها حارت في معنى آخر جملة منه عن العشاء . وصممّت ان تستعلم جدتها عن ذلك في اول فرصة مناسبة . ثم اسندت رأسها الى ذراعيها ، واطلقت لافكارها العنان تراقب داني وهو يتقلب بشكل غريب .

انها فتحت باب قلبها للرب يسوع فدخل،وها هو حيّ في قلبها. وحدث كما قالت الجدة : اتى يسوع اليها بروحه القدوس ، روح الصفح والمحبة، فتلاشت منها أفكار الانتقام وعواصف البغض والحقد، كما يتلاشى الظلام امام النور ، وفجأة اصبح الصفح سهلاً. في الحقيقة لم تعد تذكر شيئاً عن ذلك لان الرب عندما دخل قلبها بدأ يُظهر لها ما كان فيها سابقاً عن محبة ذات وحقد وعدم ثقة وقلة ايمان . وبات جلّ اهتمامها الآن التأكد ان لوسيان سيصفح عنها .

لقد اخبرته بما فعلت ولكنه لم يظهر اهتماماً بالامر ولا امتعاضاً منه . ولكن ألم يخسر بسببها الجائزة ؟ ففكرت في وسيلة تعوض بها عن شيء مما خسره .

وفكرت في حيوانات فلك نوح فقالت في نفسها : ان اخذتها وذهبت بها الى المعلم واخبرته عنها يعرف حينئذ براءة لوسيان . ومن المحتمل ان يعطيه المعلم جائزة. ولكن ما عسى ان يقول عنها للاولاد؟ لذا أبت ان تذكر شيئاً له . وحالما قررت هذا وجدت انها اضاعت لذة التأمل بعددها ولم تعد مسرورة به . فجعلت تلهو وتتأرجح على

عوارض الخشب وتطعم البقرات من ثقب الخشب لتتناسى تأنيب ضميرها . وجاء الوالد ليحلب البقر فذهبت اليه وجلست في المذود، واخذت تتحدث معه وهو يشتغل .

وخيّم الظلام في ذلك اليوم مسبقاً ، فدخل الولدان لتناول طعام العشاء. ولما حان وقت نوم داني حصل اضطراب في الغرفة : ارادت الجدة ان تظل القطط في مخزن التبن ، اما داني فأراد ان تنام القطط معه في السرير . وبعد جدال طويل تساهل كل منهما وتم الاتفاق على ان تبيت القطط تحت السرير .

وما ان رجعت الجدة وحفيدتها الى البهو وجلس كل منهما على مقعد حتى سُمع قرع على الباب ، فقامت أنيت لتفتح واذا لوسيان واقف امام الباب خجولاً يفرك بيديه . فاستولى الخجل على أنيت لأول وهلة، مع انها كانت راغبة في ملاطفة لوسيان. ووقف الاثنان بحيرة ، كل منهما ينتظر ما سيقوله الآخر. ونظرت الجدة فاستغربت ذلك السكون وقالت: «ادخل يا لوسيان. نحن مسرورون برؤيتك . اجلبي له كرسياً يا أنيت ، وهلما اجلسا بجانبي . »

فأطاعا وجلسا. فسأل لوسيان: «هل من تحسن في رجلك يا أنيت؟» فشكرته أنيت قائلة: «نعم، انها في تحسن ملموس.» واطرق كل منهما الى الارض في صمت. فحدقت اليهما الجدة من فوق نظارتيها وقالت: «يجب ان تجعلا حداً لهذا الخصام ، وتسلكا بتعقل. أجل انك أتيت بعمل سيىء يا لوسيان ، ولكنك لم تأته عمداً . على مَ التفكير في الماضي ؟ وهل من فائدة في البكاء على ما مضى ؟ فعليك ان تتشجع

وتبدأ من جديد . وانت يا أنيت ، عليك ان تكوني سموحة لطيفة وان لا تحسبي نفسك أفضل من غيرك . »

قالت أنيت : «جدتي ! انا لا احسب ذلك . »

ـ « بلى ؛ والا لما وجدت الصفح صعباً . »

ـ «اني صفحت عنه الليلة الماضية حين كنت على الجبل. صفحت عنه ولم اجد صعوبة كبيرة في ذلك لاني كنت قابلته انا ايضاً بعمل رديء . وعندما اخبرته عن فعلتي الشنعاء صفح عني . أليس كذلك يا لوسيان ؟ »

فقال لوسيان: «أجل، ولكن اساءتك لا تقابل بعملي الرديء . اني استطيع ان انحت حصاناً آخر، واما ان اعمل ساقاً جديدة لداني فلا استطيع. على كل حال ، كل يشهد انك ابنة طيبة القلب، والجميع يحبونك . اما انا فلا احد يحبني . »

فقالت أنيت : « الجميع يعرفون ما فعلت انت ، ولا يعلمون ما فعلت انا . هل عرفت يا لوسيان اني كنت افكر بعد ظهر اليوم في ما يتوجب علي من اطلاع المعلم على ما فعلت معك؟ ولكني ما اظن اني سأملك الجرأة على فعل ذلك . »

كانا يتحادثان، والجدة جالسة تصغي. فتوجهت الى أنيت بالكلام قائلة : «كيف يا أنيت ، وجدت الآن التسامح سهلاً ، مع انك منذ ليلتين كنت قد اخبرتني انك لن تقوي على ذلك ابداً ؟ »

ـ «لقد فتحتُ الباب كما قلت يا جدتي ، وتم كل ما حدثتني به. فعندما طلبت من الرب ان يدخل الى قلبي لم اجد الصفح صعباً . »

ـ «لقد عرفت ان ذاك سيحصل عندما تفتحين له الباب. وحين يدخل يسوع بمحبته العظيمة وصفحه الى قلوبنا ، فلا يبقى ثمة مكان للحقد والانانية. ان افكار السوء تتلاشى كما تتلاشى الظلمة عند شروق الشمس . ولكن هلا عرفت ان محبـــة الرب تطرد شيئاً آخر من قلوبنا ؟ ناوليني الكتاب المقدس يا أنيت . »

وقلبت الجدة الصفحات بتمهل حتى وجدت الاصحاح الرابع من رسالة يوحنا الاولى ، واشارت الى العددين الثامن عشر والتاسع عشر ثم قالت : «اقرئي يا انيت» . فقرأت أنيت بتأن ووضوح :

«لا خوف في المحبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف الى خارج. لان الخوف له عذاب واما من خاف فلم يتكمل في المحبة . نحن نحبه لانه هو احبنا اولاً » .

فقالت الجدة: «اي نعم، ان المحبة الكاملة تطرح الخوف الى خارج. وعندما يأتي الرب يسوع بمحبته الكاملة الى قلوبنـــا يطرد القساوة ومحبة الذات ويستطيع ايضـــاً ان يطرد الخوف ... ان كنا نؤمن بمحبته الكاملة لنا فلا موجب للخوف وان كان يحبنا تماماً فلن يسمح لأي شيء ان يؤذينا . »

ظل لوسيان وأنيت جالسين يفكران هنيهـة ؛ ثم اشرقت على ثغرها ابتسامة ... وقامت أنيت الى خزانتها وجلبت دب الزنجبيل وكانت قد خبأته منذ عيد الميلاد، فقسمته الى شطرين واعطت لوسيان شطراً كتقدمة سلام . فجعل لوسيان يأكل بسرور ؛ وظلت أنيت تتأمله مضطربة : لقد انجلى وجه الصواب في عينيهـا بصورة اوضح ولكنها لم تزل تنفر وتأبى ان تعمل بموجبه .

وانصرف لوسيان مشيعاً بالحفاوة . وهمّت أنيت بالذهاب الى غرفتها لتنام فنادتها جدتها قائلة : «لا تنسي يا انيت ! عندما يدخل الرب فانه يدخل كسيد مطلق . فليس لك بعد الآن ان تعملي وفق هواك ومشيئتك ، بل وفق مشيئته . »

قالت أنيت في شيء من الحزن : نعم... ثم صعدت الى غرفتها . وحين جثت بجانب سريرها لتصلي قالت :

«ايها الرب يسوع! اني اريد ان اعمل حسب قولك ووفق مشيئتك. فان كان من واجبي ان اخبر المعلم فأرجوك ان تعطيني الشجاعة وتطرد عني الخوف . »

واضطجعت في الفراش بقلب منشرح، وغرقت في النوم سريعاً . وفي نومها لمحت نوراً يتخلل شق النافذة ، ويقع على زاوية الغرفة ، فقالت :«ها هو الصبح. افتح النافذة فأرى ان كانت السماء صافية.» ونهضت حالاً ؛ وما ان فتحت النافذة حتى غمرها النور . وانتعشت الغرفة الصغيرة وامتلأت باريج نسيم الصبح الشذي . وتذكرت أنيت ما قالت لها الجدة: «لا سبيل الى ازالة الظلام من الوادي الا بعد ان تشرق الشمس عليه . ولا سبيل الى ابقاء الظلمة في غرفة مشرقة..» البغض الذي كانت تضمره للوسيان هو كالظلمة؛ وخوفها من الاعتراف بخطإها هو كالظلمة ايضاً ؛ وسماحها ليسوع ان يدخل يشبه فتح النوافذ ...

وظلت تمعن التأمل في هذه الافكار السامية وهي تكاد تطير لشدة فرحها . ونزلت الى المطبخ حيث كانت جدتها تعد القهوة فقالت لها:

«جدتي! اني اريد ان اذهب الى المدرسة في هذا الصباح لمواجهة المعلم!»

— «ولكن كيف تستطيعين الذهاب ورجلك ما تزال تؤلمك ؟»

— «سأذهب على الزلاجة .»

— «وكيف ترجعين ؟»

— «لا اعلم ، ولكن سأذهب مهما كلفني الامر. لا بد لي ان اذهب واواجه المعلم هذا الصباح دون تأجيل .»

رجع الاب ينفض الثلج عن حذائه فقاطعها قائلاً: أراكما تتحاوران. ان كانت أنيت ترغب في مواجهة المعلم فبوسعها ان تركب العربة معي، فاني ماضٍ باقراص الجبن الى المحطة . أنزل أنيت عند الباب ، ثم آخذها في طريق عودتي الى المحطة .

فطفح وجه أنيت بالبشر والسرور . وجلست في العربة قرب والدها . كان الجبن يتخضخض وراءها ، وحيوانات نوح بين يديها ملفوفة بحرص في منديلها . وكانت تفكر في ما عساها ان تقول للمعلم . ثم ماذا تفعل ان نفر منها المعلم ؟ وماذا تقول ان غضب المعلم على فعلتها الشنعاء ؟..

وفجأة التفت اليها والدها وسألها: «لاي سبب تريدين ان تواجهي المعلم؟ هل طالت عليك فرصة العيد؟ هل ضجرت الايام التي لا دروس فيها تدرسين ولا واجبات تكتبين ؟»

فأسندت أنيت رأسها الى معطف والدها وقالت : «كلا يا بابا ، اريد ان اخبره شيئاً كتمته عنه . وهذا الشيء هو سرّ ! »

وامسكت بيده وهو قابض على مقود الزلاجة. صحيح ان الاشغال ما كانت لتسمح له بالتدخل في جميع شؤون العائلة، ولكنه كان واثقاً

من ان الجدة تقوم خير قيام بتربية الاولاد على مبادىء صحيحة، على كلمة الحق كما يبينها الكتاب المقدس . وكان يعرف غالباً ما يجول في افكارهم عندما ينصت لحديثهم ويلاحظ ملامحهم . وما اكثر ما كان يفكر فيهم ويصلي لاجلهم! لقد عرف ان ابنته الصغيرة كانت حزينة، وان شيئاً عجيباً قد حصل لها ، وانها وجدت السبيل الى الراحة والسلام فاطمأن دون ان يستفهم عن السبب .

ولما اقتربا من البيت قال الوالد : هوذا البيت ! انزلي يا أنيت . سأرجع اليك بعد نصف ساعة .

ونزلت أنيت من العربة يخفق قلبها خفقاناً شديداً . ومشت في الطريق الى الباب، ووقفت لا تجسر ان تقرعه . ولو لم يفتح لها المعلم لظلت واقفة الى ان يرجع والدها. قال لها ببشاشة : تفضلي ! ادخلي.

ثم اخذها بيدها وادخلها الغرفة حيث كانت سابقاً تجلس لتدرس درسها وتكتب واجباتها .

كان المعلم مولعاً بتلاميذه يشتاق اليهم في العطلة ، لذلك كان يسر بهم حين يزورونه . واستجمعت أنيت شجاعتها فذهبت قرب المائدة وفكت منديلها؛ ثم صفّت الحيوانات الصغيرة بترتيب وقالت : «ان لوسيان هو الذي نحتها . أليست حسنة الاتقان ؟ »

فجعل المعلم يدقق نظره فيها ويفحصها ويقلبها . ثم قال : « انها جميلة جداً ومتقنة الصنع بالنسبة لسنّه. وان عكف على مزاولة هذا الفن در عليه مالا جزيلاً لم يكن لي علم انه يجيد النحت. وان كانت فيه هذه البراعة فلماذا ترى لم يشترك في مباراة الاشغال اليدوية ؟ »

— «لقد اشترك. وجئت الآن لاخبرك عن هذا الأمر: ان لوسيان قد نحت حصاناً صغيراً بديعاً ، ولكني غافلته وحطمت حصانه لاني كنت حاقدة عليه بسبب داني . اني آسفة على فعلتي الشنعاء ! وكم يشتاق قلبي ان ينال لوسيان جائزة ! أفلا أمل في ذلك ؟ »

فنظر المعلم اليها مفكراً ، ثم قال: « لا يوجد لدي هدية اخرى. كان عندي هديتان ، الواحدة اخذها بطرس ، والثانية انت ؟ »

— « اذن يجب ان يأخذ الهدية التي نالها بطرس . »

— « ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ ان بطرس ربح الجائزة بعدل وصواب ، اذ لم يكن آنذاك من يزاحمه. فلا نقدر ان نأخذها منه . اذا كنت فعلاً ترغبين ان يحصل لوسيان على جائزة ، فعليك ان تعطيه جائزتك ، لانك كنت سبب حرمانه . أليس كذلك ؟ »

— « نعم انا كنت سبب حرمانه ... »

وبقيت بضع دقائق تفكر : كانت جائزتها كتاباً جميلاً كله صور عن جبال سويسرا . لقد احتفظت به ، ولفته بورق شفاف. فكان أثمن شيء تمتلكه وتحرص كل الحرص على الاحتفاظ به .

وتذكرت كلام جدتها عن المحبة الكاملة. ان الرب يسوع يسكن الآن في قلبها بمحبته الكاملة ، وهي لا يرضى ان تمنع عنه شيئاً ... فقالت اخيراً بعد جهود جبارة وعراك بينها وبين ميولها : « حسناً فليكن ما تقول . »

— «هذا جميل جداً افائتيني بالكتاب عندما تبدأ المدرسة ، وانا اقدمه للوسيان امام التلاميذ فيرون منحوتاته البديعة الاتقان .»

ـ « حسناً جداً ! »

ثم نظرت اليه بخجل وقالت في نفسها : « اخشى ان يظن المعلم اني شريرة ! » ولما رأته يبتسم لها فرحت وايقنت انه لا يزال يحبها كما احبها قبلاً .

ورجعت أنيت الى البيت في العربة الفـــارغة التي كانت تهتز وتترجرج . ولمـا وصلت صعدت الدرج ووقفت في الرواق ، فاتى داني ووقف الى جانبها وفي يديه القطط. وهناك وراء نافذة المطبخ، كانت الجدة تعد طعام العشاء ؛ وامامها كانت الشمس تنير الوادي .

وشخصت الفتاة الى الفضاء المتلألىء ، والى النهر الفضي؛ وشعرت بيد داني الدافئة قد صارت في يدها. واشتمت رائحة الشوربا الشهية وهي تغلي على النار ففكرت قائلة: « ان الوادي كان في هذا الصباح مغطى بالظلمة ، اما الآن فهو ساطع باضواء الشمس . وهكذا القلب الذي يحل فيه الرب يسوع يكون عامراً بالحب ساطعاً بالنور زاخراً بالقوة والشجاعة ... »

الفصل السابع عشر

كان لوسيان يتوغل في التل بخطى رشيقة وأنيت تسير الى جانبه بقلب جذل . لم يسبق لهما قط ان ترافقا في رجوعهما من المدرسة الى البيت ، ولكن هي المحبة الصافية احدثت تبدلاً عجيباً في تصرفهما !

آه ! ما كان اهنأ ذلك اليوم على قلب لوسيان ! ففي الصباح ، حين كان جميع الطلاب في الصف، توقف المعلم بغتة عن شرح الدرس واخبر الطلاب انه رأى ، خلال العطلة الميلادية ، منحوتات خشبية اعجبه صنعها غاية الاعجاب فصمم منح جائزة سنية لصانع تلك المنحوتات الرائعة ! وكانت أنيت مترقبة ، بين لحظة ولحظة ، ان يسرد المعلم القصة بحذافيرها فكاد يغمى عليها وهي تفكر فيما عسى ان يقول الاولاد ويظنوا فيها . وزاد في استغراب الجميع ان المعلم دعا لوسيان لكي يتقدم ويتسلم الجائزة ...

ثم تجمع الاولاد حول المنحوتات معجبين بها . اما بطرس ذو الوجه الانمش ، فقد اعجب بها اكثر من الجميع وصرح ببشاشة

وببساطة انه لو عرضت هذه المنحوتات في المباراة لما كان له اي امل في الحصول على الجائزة ! ثم طلبوا ان يروا الجائزة . وهنا صرخت البنات: «انها مثل جائزة أنيت تماماً دون فرق». وكانت أنيت خائفة من انكشاف ستار الغموض وافتضاح الامر ؛ ولكن لوسيان اجاب قائلاً: «أحقاً الجائزة مثل جائزة انيت؟ واذ كان الجميع غافلين عنها غمزها بعينه. وبعد ان انفردا وابتعدا عن ابصار الجميع قدم لوسيان لها الكتاب قائلاً : «انه لجميل جداً ان احصل على جائزة؛ولكني لا اريد الاحتفاظ بها . ان الكتاب يا أنيت لكتابك ؛ وما اكره علي ان انتزعه منك انتزاعاً ! »

— « بل هو كتابك . والدليل على ذلك ما قاله المعلم ؛ فيجب ان تحتفظ به . »

— « ان الكتاب هو لكلينا . والافضل ان نشترك في حيازته . فليحتفظ به كل منا شهراً بالمناوبة . »

فأشرق وجه أنيت بشراً لشدة ولعها بالكتاب واجابت: «فليكن كما تريد فأنا موافقة على ما قلت . »

وهكذا كان . ففي بدء كل شهر كان كل منهما بدوره يسلم صاحبه الكتاب للاحتفاظ به طيلة الشهر فيتذكران ان السعادة الحقيقية هي ثمرة المسامحة والمشاركة والمساعدة المتبادلة .

وقال لوسيان : «هلمي نجلس على كومة الحطب هذه ونتطلع في الكتاب.» فجلسا يقلبان صفحاته ولم يكن لوسيان شاهده من قبل . كان مولعاً بالجبال خبيراً بشؤونها فجعل يشير الى مختلف الطرق

للصعود فيها؛ ويخطط الطريق باصبعه قائلاً: « هذا افضل طريق الى قمة الجبل الفلاني . وسأتسلقه في اول فرصة سانحة . »

وكانت أنيت تستحلي حديثه وتتمنى لو كانت صبياً لتستطيع هي ايضاً تسلق الجبال .

ومرت الساعات، وتكبدت الشمس السماء ولم يفطنا الى ان وقت الغداء قد مضى . ولم ينتبها الا عندما سمعا صوتاً ناعماً يقول في شيء من الاستغراب: «أنيت! ان جدتي اذنت لي ان آتي واقابلك؛فالغداء حاضر منذ ساعة وانا سبقتك واكلت . »

كان المتكلم هو داني وقد جاء مستعيناً بعكازه ، وملامح التعب ظاهرة على محياه . فأسرعت انيت نحوه وقالت : « داني ! ما كان ينبغي ان تمشي كل هذه الطريق . كيف تستطيع الرجوع ؟ لنعد دون تأخر . »

واخذوا يمشون ببطء . واما داني الصغير فكان تعباً جداً،وكانت المسافة بعيدة بينه وبين اخته . عندما خرج من البيت لم يخطر في باله انه سيمشي طويلاً . واخيراً اضطر لوسيان ان يحمله على ظهره ، وحملت أنيت العكازتين . واستأنف الصديقان سيرهما صامتين كأن ظلاً من الكآبة حال بينهما . كان كل منهما يفكر في داخله ويقول لنفسه : « مهما عملتُ لازالة الخصام ، فلا اقدر على ازالة العرج عن ساق داني . »

ولما وصلوا الى البيت حملت أنيت اخاها الى الداخل،فقال بتوسل: « آه ان ساقي تؤلمني ! القيني في السرير يا أنيت ! »

فحملته أنيت الى الفراش وجلبت له القطط ليلعب بها وينسى وجعه . ثم أعدت حساء البطاطا وجلست قربه تأكل . ولما فرغت من الاكل مضت الى المطبخ تساعد جدتها .

فقالت الجدة: «ماذا حصل يا أنيت؟ان ملامحك تدل على الحزن.» فلم تجب أنيت الا بعد وقت طويل ، فقالت بتأوه : « جدتي ! »

— « نعم بنيتي ! »

— «قلت لي يا جدتي اني اذا طلبت من يسوع ان يدخل قلبي فهو يجعلني احب لوسيان ، وينزع مني الافكار الرديئة . في الاسبوع الماضي كان كل شيء حسناً. اما الآن فعندما أرى داني يعرج تداهمني افكار مكدرة لا تحصى . »

— « يا بنيّتي ! لا تغفلي ان الافكار الفاسدة ، كالغضب ومحبة الذات ، ستقرع على الباب كل يوم من ايام حياتك ، وتحاول الدخول ثانية . فلا تحاولي طردها بمجهوداتك ؛ بل اطلبي من الرب يسوع ان يقابلها بمحبته . فكري دائماً بمحبة يسوع العظمى ؛ وتعلمي يومياً عن محبة الرب يسوع بقراءتك الكتاب المقدس . فان ملأتِ قلبك بمحبته حينئذ لا يكون لتلك الافكار مكان . »

— «هل يوجد مكان خاص في الكتاب المقدس عن محبة الرب ؟»

— «كل الكتاب يدل على محبة الرب. لقد فرغنا حديثاً من قراءة بشارة مرقس ، أليس كذلك ؟ اما لاحظت ان كل صفحة من هذا السفر الجليل تحدثنا عن محبة يسوع : عن محبته لتلاميذه ، عن محبته لاعدائه ، عن محبته للمساكين والمتألمين، عن محبته للصغار . تأملي في

محبة يسوع ، ولا تنسي ان تلك المحبة نفسها هي التي دخلت قلبك عندما طلبت من الرب ان يتلك حياتك . »

فأجابت أنيت متحمسة: «اني آخذ ، منذ الآن ، عهداً على نفسي ان اقرأ كل صباح، عندما استيقظ من النوم ، قصة عن محبة يسوع.»

كان لوسيان قد ذهب الى بيته وفي نفسه غمرة من الحزن . وكانت تساوره ايضاً شتى الهواجس : ان منظر داني متعباً قد ملأ قلبه غماً عليه وشفقة .

لقد استطاعت أنيت ان تصلح الخطأ الذي عملته، فأجرت الحق. اما هو فلن يستطيع ابداً ان يعيد ساق داني الى ما كانت عليه .

ما الذي غيّر أنيت وحملها على الصفح عنه يا ترى ؟ لقد ظن في بادىء الامر ان السبب في ذلك هو انقاذة اياها من الثلج . اما الآن فبات مؤكداً ان ثمة سبباً آخر اعظم من ذاك . لقد سمعها تتكلم عن فتح الباب ليسوع . وسمع جدتها تقول عن محبة يسوع انها تطرد الحقد والانانية . والرجل الشيخ على الجبل كله قائلاً ان الرحمة والمحبة والمغفرة تدخل الى القلب عندما نفتح باب قلبنا ليسوع . لا شك ان فتح الباب احدث تغييراً عظيماً في أنيت. كانت معجبة بنفسها مملوءة حسداً وحقداً ، اما الآن فهي وديعة ولطيفة . ورسخ في قلبه هذا اليقين ان يسوع المسيح حيّ قادر ان يعمل الآن عملاً عجيباً في حياته ...

وكان لوسيان يمشي ببطء غارقاً في بحران هذه التأملات. ولما وصل الى البيت لاحظ ان الغيوم الكثيفة قد تراكمت وراء الجبال وبدأت

الريح الباردة تهب فقال : «لا بد ان تعصف عاصفة هوجاء في هذه الليلة . ودخل الى البيت فقالت له امه تعال اجلس . انك متأخر يا بني . انا مسرورة انه لا يوجد مدرسة بعد ظهر اليوم . فالغيوم تتكاثف ويظهر ان عاصفة ثلجية آتية. ما هذا الكتاب الذي بيدك؟»

— «هو جائزة . اعطاني اياه المعلم لاجل قطعة خشبية فنية نحتها في العطلة الصيفية . »

— « ان ذا لطف منه . هل عرف عن القطعة التي تحطمت ؟ »

— « نعم . »

ثم غيّرت الحديث لانه ابى ان يجيب عن اسئلة معقدة ؛ وعزم ان يحتفظ بالسر في طيات قلبه . ومضت امه الى المطبخ لتكوي الثياب وبقي هو منفرداً مفكراً : قالت له انيت انها طلبت من يسوع ان يدخل ... ثم قرأت الجدة بعض اعداد من الكتاب المقدس ... هل استطيع ان اعثر على هذه الاعداد ؟ كان يود ان يقرأها ثانية بتمعن . ولهذا توجه الى رف الكتب وتناول نسخة الكتاب المقدس العالية . كان الغبار متكاثفاً عليها ، وقد سجلت في صفحاته الاولى مواليد وزواجات ووفيات . وقلما قرأت فيه امه ! وهو لم يكن يعرف عنه كثيراً سوى ما تعلمه من المدرسة . نسي اصحاح الجدة وعدده ، وظن انه في موضع ما في آخر الكتاب . لم يستطع ان يجده . لكنه وجد اشياء اخرى : وجد الاناجيل ، والقصص التي سمعها في المدرسة عن يسوع الشافي ، كيف انه شفى العميان فابصروا والبرص فطهروا . وكيف اقام الاموات. نعم توجد

قصة عن شخص شفاه يسوع وجعله يمشي «قم احمل سريرك وامش.» ان كان يسوع بالحقيقة حياً اليوم وقد غيّر قلب أنيت فبكل تأكيد يستطيع ان يجعل داني يمشي ايضاً .

والحقيقة ان لوسيان منذ نعومة اظفاره كان يتلو صلوات ولكن على سبيل العادة . وها هو الآن يذهب خفية الى زريبة البقر ويصعد الى الغرفة العليا ويجثو في نفس المكان حيث كان يبكي بمرارة في الاشهر الماضية ! لم يكن يفهم ما معنى فتح الباب ليسوع ، لكنه بات يؤمن ان الله قريب وانه يستجيب الصلاة . وجعل يصلي من كل قلبه لكي يشفي الله داني ويعيده الى حالته الاولى ، كما شفى الجموع التي يكلمنا عنها الكتاب المقدس . لبث هناك مدة طويلة. ثم نزل ليحلب البقر ؛ ولما فتح الباب قابلته ريح قوية وصفعه الثلج من كل جانب حتى كاد يسقط الى الارض .

كانت امه تترقب عودته بقلق . ولما رأته قالت : « يا بني ! انها عاصفة ثلجية . الاوفق ان تأخذ السراج وتذهب الى ملاقاة اختك فقد خيّم الظلام ولما ترجع . »

وفي نفس تلك اللحظة فتح الباب على مصراعيه ودخلت ماري تضم معطفها الى صدرها . لقد جرت جرياً حثيثاً في مهب العاصفة الهوجاء حتى وصلت منهوكة القوى. فقالت وهي تلهث : «لقد صارعت الريح صراعاً عنيفاً حتى كدت اهلك يا لوسيان ! لماذا لم توافيني بالسراج ؟ اماه اني جائعة جداً . هل العشاء حاضر ؟ »

فجلسوا جميعاً حول المائدة ، وكانت ماري تحدثهم ببشاشة ووجنتاها متوردتان كالتفاح الاحمر: «يا له من يوم قضيته ! كان الناس

طول النهار في ذهاب وايابٍ في الفندق . ترى ماذا كانوا يتوقعون في شتاء قاس كهذا ؟ اما انا فصحيح اني قد عييت جداً ، ولكني احمل معي مبلغاً من المال لا يستهان به . انظري يا امي!» وقدمت ماري ورقة نقد الى امها،فنظرت هذه والسرور يطفح من وجهها . فسألت الام : « من اعطاك كل هذا ؟ »

— « رجل كريم الاخلاق ، واظنه من ذوي الشهرة الواسعة . اخبرتني عنه صاحبة الفندق انه طبيب حاذق يستطيع ان يشفي أي كسر في العظام . يؤمه الناس من كل انحاء سويسرا فيشفيهم . »

كان لوسيان متكئاً على مائدة الطعام يحملق في اخته وهي تسرد تلك الاخبار. فلم يتمالك ان قاطعها : «ماري هل يستطيع أن يشفي ساق داني ؟ »

فنظرت اليه ماري في دهشة واستغراب ، وقد جهلت ان اخاها ما يزال قلقاً بشأن داني الصغير . واجابته بلطف : «لا اعلم . وان رغب اهل داني ان يعاينه الدكتور جوستاف فعليهم ان يأخذوه الى المعاينة ، هناك عند شاطىء البحيرة ، ولكن لا اظن ان عندهم مالاً كافياً . ولا يخفَ عليك ان الاطباء الحذاق يتقاضون اجوراً باهظة للمعاينة . ولا اظن والد داني قادراً على دفع هـذه الرسوم حتى ولو باع كل بقراته !.. »

فقال لوسيان: «ولكن، يا اختاه، أليس من الممكن ان يأخذوا داني الى الفندق ليعاينه الطبيب هناك في الصباح ؟ »

— « انه مسافر صبـاح غد باكراً جداً بالقطـار وقد انزلوا كل امتعته في هذا المساء . »

– « ألا يمكن ان يأخذوه اليه في هذا المساء ؟ »

– « ان هذا غير ممكن يا لوسيان . تصور ولداً صغيراً مسافراً في عاصفة ثلجية كهذه. على كل حال فالقطار الاخير الى هنا مر منذ ساعات ، وليس من شك في ان الطريق المؤدية الى منزل الطبيب ستكون مقفلة بسبب تراكم الثلج... ثم، من أين لوالديه المال الكافي؟ فانصحك يا اخي ان تكف عن الاهتمام والانشغال بداني . انت لم تقصد اذيته ؛ وهو سعيد جداً بالقفز على عكازتيه محفوفاً بالدلال . » واستمرت ماري تسرد اخبار ذلك اليوم الحافل بالاشغال والمتاعب؛ أما لوسيان فكان شارد الفكر عن اخبارها، مغرقاً في التأمل والبحث عن وسيلة ناجعة لمساعدة داني . وكانت تجول في خاطره افكار وافكار؛ فصمم على امر ذي بال . ولكن امامه ثلاث صعوبات تحول دون انجازه! أجور المعاينة الطبية أبهظ من ان يقدر هو على دفعها... فما العمل ؟ واتجه فكره الى صديقه شيخ الجبل . فهذا متوفر عنده المال ، وهو كريم اليد طيب القلب .

ولكن قد يكون الممر مقفلاً . لا بأس ! فعلى المرء ان يسعى جهده ؛ وان لم تسفر الجهود عن نجاح فلا لوم على باذلها !

واخيراً هل يرضى الطبيب ان يأتي؟ هل يترك القطار الذي سيقله الى مستشفاه الشهير بقرب البحيرة ، ويأخذ القطار المحلي مع ولد يجهله ويصعد الى الجبل في عاصفة ثلج ليرى ابن فلاح ؟

كل ذلك كان بعيد الاحتمال قليل الحظ بالنجاح ؛ ولكن ماري قالت عنه انه رجل كريم الاخلاق... وفجأة قال لامه: «لقد فرغت من عشائي . انا ذاهب الى غرفتي ! »

الفصل الثامن عشر

ومضى لوسيان الى غرفته بغاية السرعة وهو يعلم ان انجاز مهمته يقتضي منه ألا يضيع سدى دقيقة واحدة. واخرج من الخزانة معطفه ولبس قبعته الصوفية وغطى اذنيه جيداً ثم لف ساقيه بعصائب صوفية دافئة. وكتب بطاقة لامه يخبرها فيها انه لن يعود الى البيت قبل الصباح.

ونزل الدرج على اطراف اصابع قدميه بكل خفة ، وملأ جيبه بالخبز والجبن ، واخذ معه علبة كبريت. ثم رفع مزلاج الباب الخلفي بكل هدوء ، وانسل الى المخزن . كان سراج العاصفة معلقاً على الحائط ، فاخذه واشعله . اما الزلاجة فبات يتساءل ما الاوفق : اخذها ام تركها ؛ واخيراً فضّل ان يتركها بسبب الظلام . ثم فتح باب المخزن الخلفي وخرج الى المروج بين الزوابع والثلوج . كادت العاصفة ترميه الى الارض ، لكنه تقوّى عليها وشرع يشق طريقه شقاً ويقول في نفسه: «ان كانت الريح كذا قوية في الحقول فما عسى ان تكون على الممر ؟ الا تصرعه وتدفنه تحت اكوام الثلج ؟» وطرد

مثل هذه الافكار المكدرة وقال : « جلّ اهتمامي الآن ان افكر في الوصول الى الرجل الشيخ!» وشعر بفرح عندما دخل الغابة، واحس بامان مع ان الاشجار كانت تهتز واغصانها تتلاطم؟ غير ان الثلج على الطريق أقل عمقاً مما هو في الحقول ، ولذا فهو يستطيع ان يسرع اكثر دون تعثر . واستمر يعدو حتى بان له وهيج اصفر من نور نافذة الشيخ. حينئذ بدت امامه نهاية المرحلة الاولى من مجازفته ومغامرته. ولما وصل الى الباب شرع يقرع ويقرع . فقال الشيخ بحذر : « من بالباب ؟ »

— « انا ... لوسيان . »

وللحال فتح له الشيخ،وجذبه الى الداخل ينظر اليه في استغراب وشفقة وقال :

— «بني! لوسيان ! ما الذي حدا بك الى المجيء في هذه العاصفة الهوجاء ؟ ماذا حصل ؟ »

فقال لوسيان وهو ينظر الى وجه الشيخ وعيناه تلمعان قلقاً : «قلت لي مرة ان لديك مالاً كثيراً. وقلت انك قد اوقفته على من هو بحاجة ماسة اليه . أفلا تتكرم وتعطيني هذا المبلغ فاصرفه على داني الصغير فتعود ساقه الى كانت عليه سابقاً . »

— « كيف يكون ذلك ؟ »

— « يوجد طبيب في الفندق حيث تشتغل اختي . وهذا الطبيب حاذق يعالج كسر العظم ويشفي العرج . انا ذاهب اليه الآن لاكلمه بشأن داني ... ولكن اختي قالت انه يتقاضى مالاً كثيراً . »

– «اتذهب الآن في جو ساخط كهذا؟ هل اختل عقلك يا ابني؟ لا يمكنك ان تعبر الممر في هذه العاصفة ... »

– «اظن اني استطيع . العاصفة بدأت منذ بضع ساعات فقط. وان اسرعت في الجري فلن يكون الممر مقفلاً باكوام الثلج . ولكن لا فائدة من الذهاب دون نقود . »

فلبث الشيخ صامتاً هنيهة كأنه في عراك داخلي مع نفسه . ثم قال بارتياب : « سوف لا امنع النقود عنك ان وثقت من الرجل ، فاني لا اريد ان يتلف مالي او يضيع. وكيف اعلم ان الرجل امين؟ ما اسمه يا لوسيان ؟ »

– « اسمه الدكتور جوستاف . »

ردد الشيخ هذا الاسم بصوت ناعم وفي لهجته شيء من الاستغراب، ظاناً ان الولد غلطان: «الدكتور جوستاف»! ولاحظ لوسيان امتقاع وجه الشيخ . ونهض هذا دون ان يفوه بكلمة ، وفتح احد صناديقه المنحوته واخرج منها مفتاحاً فتح به خزانة في الحائط وراء سريره، ومنها اخرج صرّة محشوة بالنقود وقال : « خذهـــا كلها واعطها للدكتور جوستاف. وقل له ان جميع هذه النقود هي له اذا استطاع ان يشفي ساق الولد ... اخبره يا لوسيان انها وفاء دين . »

كان صوته يرتجف قليلاً ولكن لوسيان لشدة فرحه لم يفطن ان يسأله سبب هذه الرجفة. انه لم ير مالاً بهذا المقدار كل حياته. فوضع الصرة داخل قميصه وزرر صدرته ومعطفه، واتجه نحو الباب وقال له وهو مسرع: «اشكرك جزيل الشكر. سأرجع واخبرك بما سيكون.»

وقف الشيخ في الباب يشيعه ، ورفع له السراج عالياً ليضيء له الطريق . لم يمش لوسيان بضع خطوات حتى ناداه الشيخ بصوت أعلى من الرياح فرجع . فقال له الشيخ : « لا تنسَ ما اوصيتك به . »

– « كلا ، كلا ! علي ان اقول ان هـذه النقود وفاء دين . لن انسى . استودعك الله يا سيدي . »

لكنه لم يبعد كثيراً حتى سمع الشيخ يناديه ثانية فرجع لوسيان. فقال الشيخ: «لا تذكر له شيئاً عني يا لوسيان . ولا تخبره عن مكان سكناي . »

– « كلا يا سيدي . سأقول له انها وفاء دين لا غير . »

وودع الشيخ واطلق ساقيه للريح . وعندما وصل الى حافة الغابة التفت الى الوراء فلاحَ له سراج الشيخ واستطاع ان يرى هيئته من بعيد بين الثلوج وهو واقف امام باب بيته المضاء . ينبغي ان يسرع قبل ان يتراكم الثلج على الممر ، فيمسي العبور عليه مستحيلاً والأوفق ان يأتي بزلاجته من الزريبة. كان يتعثر في طريقه الى الحقل الاخير ، فتغطس قدمه في الثلج عند كل خطوة. لحسن حظه وجد باب الزريبة مفتوحاً ؛ فدخل ملتمساً طريقه بغاية الحذر. وما ان امسك زلاجته ليرفعها عن الارض حتى رأى الباب الثاني قد فتح على مصراعيه ودخلت امه وماري ومعهما السراج مضاء ؛ فوضع فوراً زلاجته قرب الحائط واستلقى منبطحاً على الارض القذرة وراء اضخم بقرة . قالت امه مستعينة بالسراج تنظر حولها قلقة: «اظن انك مصيبة يا ماري. لقد انتابه ميل جنوني ليتوصل الى ذلك الطبيب. ولا شك انه ينتقل الآن

على طريق الجبل. فالأوفق ان نقنع والد داني فيذهب وراءه ويرجعه.»

فأجابت ماري بصوت مختلج: «اظن ان ذلك هو الأفضل. ان السيد بطرس يستطيع ان يدركه بكل سهولة ويرجعه قبل ان يقع في خطر.»

— «هلم نذهب اليه الآن!»

وخرجتا مسرعتين. ونهض لوسيان وخرج من الحظيرة واضاء سراجه؛ ثم ثبت زلاجته برجليه وانطلق ممسكاً بالسراج الى الأمام ورأسه منحن ليقي عينيه شر العاصفة. وانطلق مسرعاً فوق المروج حتى وصل الى الغابة مأواه المألوف، حيث استطاع ان يرفع رأسه ويرى الطريق أمامه. كانت الريح اهدأ في تلك البقعة، فتسنى له ان يرى الاشياء عن بعد، وكان ينظر حوله بقلق لئلا يراه أحد ويستعلم عن امره. ولكن من يفكر في الخروج من بيته في مثل تلك الليلة المخيفة؟

لم يكن الثلج كثيفاً جداً على طريق الوادي، فرأى لوسيان ان السير على الأقدام ليس بالامر العسير. ولكن لما دخل في الغابة اجتاحت نفسه غمرة من الخوف، فان هذه الغابة غير مألوفة عنده، وهو يجهل مسالكها وشعابها. واستطاع بين زفير الرياح، ان يسمع زمجرة مياه النهر الساخطة الصاخبة. واخذ يشعر اكثر فاكثر بثقل زلاجته.

ها هو منذ ثلاث ساعات يتوغل في الغابة، ويتوغل الخوف والذعر في فؤاده! وتجمعت في ذهنه مآسي الجبال وكوارثها المريعة المفجعة: من تساقط اطواد الثلوج والصخور، ومزالق غدارة، الخ. فكر بكلاب سان برنار الضخمة المدربة على انقاذ المسافرين المطمورين في

الثلوج ، ولكن اين هو من تلك الكلاب ! فأيقن انه لا محالة هالك، وليس له الا ان يعود ادراجه .

وتوقف عن السير ، وجال في فكره هذا الخاطر : ان يثبّت زلاجته في رجليه ويسرع في الرجوع الى البيت في الطريق المتعوجة ويقول لهم : «لقد عملت جهدي ولكني فشلت» . ولا شك ان عائلة السيد بطرس سيقولون عنه انه بطل شجاع ويثنون على همته الجبارة رغم جهوده الفاشلة .

كانت الريح تزمجر زمجرة مرعبة، والاشجار الضخمة تصفر صفيراً عالياً وتتلاطم اغصانها . فعرف انه اقترب من آخر الغابة في الممر الموحش حيث كان بامكان الرياح ان تحمله وترميه على الصخور كندف الثلج. وبدأت اسنانه تصطك واخذ يبكي ويصرخ : «آه ! اني خائف جداً ! لا يمكنني ان استمر! اني هالك اذا اقتحمت طريقي الى الممر. يا ليت السيد بطرس يأتي فينقذني من هذا المهلك!» وعندما انحنى ليثبت زلاجته تذكر فجأة ذلك الوقت السعيد لما جلس هو وأنيت والجدة حول الموقد، وحدثتهما الجدة عن الخوف «المحبة الكاملة تطرح الخوف خارجاً ... ان كنا نؤمن بمحبة يسوع الكاملة لنا فلا موجب للخوف في قلوبنا . ان كان يسوع يحبنا فلن يسمح لأي شيء ان يؤذينا . »

توقف لوسيان هنيهة ويده ممسكة بمقود زلاجته وجعل يفكر انه ليس وحيداً ويتذكر قول الجدة ان يسوع يحبه محبة كاملة. فاذا كان يحبه هكذا فلا يمكن ان يترك ولداً في الظلام والخطر. وكأن شخصاً اقوى من الليل والرياح والمخاوف والظلام قد جاء اليه بغتة واخذ

بيده مشيراً له الى أعلى التل . اذ ذاك حمل زلاجته على كتفه واستأنف السير مهمهماً: «المحبة الكاملة تطرد الخوف خارجاً» وهكذا كان . لقد زالت مخاوفه لانه لم يعد يشعر بالوحدة . وصل الى أعلى الغابة وخرج الى الفلاة ولم يعد يفكر سوى بانجاز مهمته .

وصدمته الرياح صدمة قوية اوقعته على الثلوج المتراكمة فغطس فيها الى ركبتيه ولكنه ظل يجاهد حتى استطاع النهوض . ثم استعان بشجرة وقف تحتها وثبت زلاجته في قدميه وقد احس في وجهه ألماً لا يطاق بسبب صفعات الريح الباردة . ومضى يجابه الرياح العاتية ويتقدم خطوة خطوة .

وبغتة توقف هطول الثلج وشق القمر طريقه بين كتل الغيوم المتقطعة . ولو ان لوسيان رفع رأسه آنذاك لرأى شقوق الصخور امامه وعرف انه اقترب من القمة .

وبعد مدة هاجمته ريح عاصفة شديدة ألقته الى الوراء ، فانطرح يلهث في الثلج مخاطباً نفسه: «لا رجاء لي بالنجاة. أنا هالك لا محالة».

ثم تذكر مرة اخرى المحبة الكاملة فاستجمع قواه وجاهد في النهوض ولاحظ ان الطريق امامه منحدرة قليلاً — لقد عبر الممر ! حينئذ شكر الرب من أجل هبوب الريح . فلولا عاصفة الريح التي هاجمته واوقفته عن الاسراع لكان هلك .

واشتد البرد حتى لم يعد يشعر به . وفيما هو جالس ينزلق نزولاً دون عناء تخدرت اعصابه وكاد يستسلم الى النوم المؤدي الى الهلاك . شعر فجأة بهزة من الزلاجة نبهته واعادت اليه حسه ورشده ،

وادرك ان الريح لم تعد تقدر ان تحمله ، وان زلاجته علقت بالجليد. فانتفض وتطلع حوله ، فاذا هو في غابة ، واذا بالريح تهدأ . كان متأكداً ان الرب بمحبته الكاملة ، قاده الى المسلك الامين .

ها هو الآن في مأمن من الريح ، يعدو نزولاً في الغابة الهادئة متجهاً نحو واد عميق . وعند الفجر تبددت الغيوم وبرز القمر ينفذ نوره من بين الاغصان . اخيراً انساب الى الفلاة بين الحقول الساكنة الفضية مشرفاً على المدينة المظلمة الجاثمة في الوادي أمامه. بعد نصف ساعة يصل الى الفندق الفخم ويقرع بابه وحينئذ ... ان كان يسوع حقيقة يحبني محبة كاملة فمن المحال ان يدعني وشأني ! من المحال ان يسمح لي بتجشم الاخطار الهائلة عبثاً ...

الفصل التاسع عشر

استيقظ الدكتور جوستاف باكراً جداً . وكم كان صدره عامراً بالسرور الدافق لهدوء العاصفة وانقشاع الغيوم وعودته الى بيته وذويه !

كان قد أتى الى الفندق ليستريح مدة اسبوع من مرض انتابه ، وليتمتع بهواء الجبل الصحي. وها هو الآن معافى يشعر بنشاط للعمل.

بعد قليل يستقل القطار الباكر ويصل الى البيت قرب البحيرة عند الظهر. هناك يرحب به الجميع ، ويهتف له الاولاد لدى رؤيته ! وفكر بجميع افراد عائلته فانشرح صدره وعلت ثغره ابتسامة ! وارتدى ثيابه ليكون على اهبة . وما ان فرغ من هندامه حتى سمع قرعاً على باب غرفته ، فاستغرب الأمر . فلا هو على موعد مع أحد في هذا الوقت الباكر ، ولا هي ساعة الفطور . وفتح الباب ، ودخل خفير الليل تبدو على وجهه امارات الاضطراب فقال: «سيدي ! هل من زائر تنتظره ؟ »

— « زائر في مثل هذا الوقت ؟ كلا ! كلا ! »

– « سيدي ، منذ ربع ساعة سمعت قرعاً خفيفاً على البـاب ؛ وعندما فتحته وقف امامي ولد يبلغ الثانية عشرة من عمره ، يحمل زلاجة وهو شاحب اللون كالخيـال ، فبادرني بقوله : « اريد السيد جوستاف» . فأجبته : لا يمكن ان تزور أحداً في مثل هذه الساعة الباكرة يا ابني ؛ فقال : «اذن انتظر» . واذ لم أجسر ان اهمل ولداً بهذه الحالة ادخلته واجلسته على كرسي ثم سألته : «من أين أتيت»؟ فأجابني : من قرية « المرج الضاحك » . فقلت «كيف أتيت والقطار الباكر لم يصل بعد» ؟ فأجاب : « اتيت من طريق الممر » ، وكلما نظرت الى هـذا الولد يا سيدي ، شعرت نفسي مسوقاً الى تصديق كلامه . وهـا هو جالس الآن في الردهة . وعندما مررت ببابك وشاهدت النور في الغرفـة جئت اخبرك عنه واسألك ان تتلطف بمقابلته . »

– « اني ماض لأعاينه... اما ان يكون الولد قد وصل الى هنا عن طريق الممر فهذا ما يعسر علي تصديقه ! بل لا اظن في الخبراء انفسهم جرأة على اجتياز الممر في مثل الليلة الماضية المروعة ! يا لها من مهلكة !.. »

فهز البواب كتفيه، ومضى الى حيث الولد، والدكتور جوستاف يتبعه . وما ان وصلا الى الردهة حتى ارتدا الى الخلف من هول ما شاهداه: «لقد سقط لوسيان عن الكرسي وانبطح على الارض مغمياً عليه، شاحب الوجه كالميت.» فقال السيد جوستاف للبواب المذعور: « انا آخذ الولد الى غرفتي . اما انت فاحضر لي عاجلاً الماء الساخن والدواء المنبّه والقهوة . »

ثم حمله الى غرفته في الطابق العلوي والقاه على سريره. وخلع عنه الاحذية والجوارب الرطبة وجعل يفرك قدميه . ثم نزع عنه الثياب المبتلة ولفه بادثرة دافئة . وفي هذه المدة كان البواب قد حضر يلهث بشدة ومعه الاكياس الساخنة والدواء وابريق القهوة . فوضع السيد جوستاف الاكياس الساخنة في فراش الولد ، واخذ ملعقة من الدواء ووضعها على شفتي لوسيان المبيضتين . لم يفتح لوسيان عينيه لكنه تنهّد وبلع الدواء . فقال الطبيب فرحاً : « حسناً يا ابني ؛ سوف تتنعش حالاً . »

وبعد دقائق فتح لوسيان عينيه ، ورأى امامه ذلك الوجه اللطيف. لم يكن يعلم اين هو ، غير انه احس بدفء وراحة عظمى وبنعاس شديد. وكان يحدق في الرجل اللطيف الذي يرمقه بنظرات الشفقة ، فقال بصوت ضعيف : « مَن انت ؟ »

فلم يجبه السيد جوستاف فوراً ورفع رأسه وجعل يسقيه القهوة نقطة فنقطة . فأعاد عليه لوسيان السؤال : « من انت ؟ واين انا ؟ »

ـ «انا هو الدكتور جوستاف . اني لا اعرفك ولكن فهمت انك تطلب مواجهتي . »

فنظر اليه لوسيان نظرة حائرة ، وكأنه نسي سبب مجيئه الى الدكتور . غير ان الدفء والطعام انعشاه واخذت الاشياء تتضح في عينيه . فسأل : « هل انت طبيب عظيم حاذق شهير ؟ »

فقال : « لا . انا طبيب ، ليس الا . »

ـ « ولكن هل باستطاعتك ان تجعل الصبيان العرج يمشون » ؟

– « هذا يتوقف على سبب عرجهم ، ولكن احياناً استطيع. »

– « سبب عرجه سقوطه من صخرة على شفير هاوية! وهو الآن يمشي على عكازه بحذاء كبير . »

فسأله السيد جوستاف وفي صوته نبرة اندهاش : « من هو ؟ »

– « هو داني ، وهو في السادسة من عمره . يسكن قريباً من بيتنا ، ولذا اتيت اسألك ان تعالجه . اما اجور المعاينة والتطبيب فأنا اسددها لك كاملة مستوفاة . »

– « ولكن ممن سمعت عن اسمي ؟ »

– « اختي اخبرتني الليلة الماضية عنك. وهي كانت تعمل في هذا الفندق كخادمة . »

– « وكيف جئت الى هنا في هذه العاصفة ؟ »

– « اتيت من فوق الممر على زلاجتي . »

– « من فوق الممر !.. في عاصفة ثلجية !.. ذلك مستحيل . »

– « ومع ذلك فقد جئت. ومعلوم ان ليس طريق آخر للوصول الى هنا . »

فجلس السيد جوستاف ينظر الى الولد كأنه شيء نادر ، وحدق به كما يفعل كل طبيب. فمد لوسيان يده داخل قميصه، واخرج الصرة الكبيرة ثم قال: «ارجوك ، سيدي ، انظر هل هذا كافٍ لمعالجته؟»

فأخذ السيد جوستاف محتويات الصرة وعدّها ثم شهق متعجباً وقال بغاية اللطف ولكن بحزم : «يا ابني ، قبل ان نعمل شيئاً يجب ان تخبرني عن مصدر هذا المبلغ . اتعلم كم هو ؟ »

ـ « لا . ولكن اختي قالت انك تتقاضى مبالغ كبيرة . فهل المبلغ كاف ؟

ـ « انه لمبلغ عظيم ! كيف حصلت عليه ؟ »

قال لوسيان بصوت منخفض : « صديق شيخ ... اعطاني اياه . وطلب مني ان اقول لك : انه وفاء دين. ثم أغمض الولد عينيه لانه شعر بثقل فيهما . »

ـ «من هو هذا الشيخ؟ اجبني عن هذا فقط ، ثم ادعك تستريح وتنام . ما اسمه ؟ »

ـ « ارجوك ، سيدي ! اني اجهل اسمه . »

ـ « اين يعيش ؟ »

ـ « اخذ مني وعداً ان لا اخبر احداً بذلك . »

ثم اغمض عينيه وادار رأسه الى الجانب الآخر وغرق في النوم .

كان السيد جوستاف في حيرة . فالقطار يقلع بعد ثلاثة ارباع الساعة. ولكن الولد الملقى على الفراش قد جازف بحياته ليتصل به. فهل تذهب مجهودات الصبي ادراج الرياح ؟ كلا ! لا يستطيع ان يخيب عزيمة كهذه ، بامتناعه عن زيارة ولد كسيح . ولكن من المحتمل ان يظل لوسيان نائماً ساعات . فما العمل ؟

ترك الطبيب الغرفة بهدوء ثم نزل الى المكتب حيث الهاتف وطلب امرأته فأخبرها قائلاً : « آسف جداً يا عزيزتي ! اني لن اتمكن من المجيء في الموعد المضروب . لقد طرأ حادث غريب » ... ثم سرد على مسامعها القصة كما هي .

وحالما غادر المكتب اصطدم بابنة محمرة العينين من البكاء ، شاحبة الوجه ،وقد امسكت يده وقالت بلهفة : «آه سيدي !اخبرني البواب ان اخي موجود بامان عندك . لقد حسبناه ميتاً بين الثلوج. آه سيدي ! يجب ان اسرع واخبر والدتي انه هنا . »

فجلس السيد جوستاف بقربها وحاول ان يستفهم منها ويستوضحها عن أمور يجهلها . غير انها لم تذكر شيئاً الا عن مخاوف الليلة التي قضتها مع والدتها . خرج السيد بطرس يفتش عن لوسيان كل الليل، عند اطراف الغابات؛ فقد قيل له ان الولد مضى سيراً على القدمين . فليس من المعقول ان يقطع مروج الممر المطمورة بالثلوج ! انه شاهد على طريق الجبل آثار اقدام، غير انها لم تمتد اكثر من حدود الغابة.

ففتش عنه بين الثلوج دون جدوى...فعاد ادراجه بهذه الاخبار المحزنة في الصباح الباكر ولم تعرف ماري الا القليل عن داني لتخبر السيد جوستاف . ولم تستطع ان تشتغل لقلقها على اخيها . والآن وقد ايقنت انه سالم فهي تلح على ان تأخذ لوسيان الى البيت . وارادت ان تخابر بالهاتف مكتب البريد حتى يرسلوا ولداً الى الجبل فيخبر امها ويطمئنها .

غير ان السيد جوستاف أبى ان يذهب لوسيان بهذه السرعة . فماري تستطيع ان تذهب وحدها ؛ وعندما يستفيق لوسيان يأتي معه في القطار. ثم يجب ان ترسل ماري احداً ، ليحضر المركبة الى المحطة لانه من المحتمل ان يكون لوسيان متيبساً ولا يستطيع السير.

فوافقت ماري على كل شيء ، واسرعت ما استطاعت الى ذلك سبيلاً . وعاد السيد جوستاف الى غرفته .

وكان لوسيان ما يزال نائماً ويده تحت خده وقد توردت وجنتاه قليلاً وبدأ يتحسن . فجلس السيد جوستاف يراقبه وكان لا يزال يستغرب وجود مبلغ عظيم كهذا مع الولد . ثم من ذا الرجل الشيخ الذي ارسل رسالة كهذه : « وفاء دين » ؟ صمم الطبيب ان يستجلي الامر فيكون منه على بيّنة .

واستيقظ لوسيان عند الظهر ، وظل مدة يستجمع افكاره كمن اضاع ذاكرته ؛ وكانت تؤلمه جميع مفاصل جسمه . واسرع الطبيب الى الغرفة وسأل لوسيان بلطف :

« كيف انت الآن ؟ وماذا تشعر ؟ »

— «اشعر بارتياح ، شكراً . واضاف بلطف : هل لديك وقت لتزور الولد الصغير الذي اخبرتك عنه ، سيدي » ؟

—«اجل، سنذهب معاً بعد الغداء . سأطلب طعاماً لاثنين الآن. وبينما نحن نأكل، تخبرني بكل شيء عن هذا الولد وايضاً عن الرجل الشيخ الذي قلت انه اعطاك المال . »

— « لا استطيع ان اخبرك عن الرجل الشيخ ، سيدي ، لاني وعدته ان لا اخبر عنه شيئاً . فهذا سر وقد اوصاني يا سيدي ان لا اقول شيئاً سوى هذا « وفاء دين » . انه في غاية اللطف معي ، وانا لا استطيع ان انكث بوعدي . »

— «حسن ، سوف لا تنكث بوعدك، وانا لن اسألك شيئاً عنه. الآن اخبرني عن هذا الكسيح الصغير . متى اصابه العرج وكيف حصل ذلك ؟ »

ولاحظ الطبيب عندئذ ان وجه لوسيان قد احمرّ. ولم يشأ لوسيان بادىء ذي بدء ان يخبر صديقه الجديد عن حقيقة الحادث ، ولكنه تيقن ان السيد جوستاف سيطلع على حقيقة الامر في بيت السيد بطرس ، فوجد الاوفق ان يسمعها من فمه اولاً فقال بصراحة :

«يعود الحق كله علي. حصل ذلك في فصل الربيع الماضي. كنت اناكده واتظاهر باني سأرمي قطته في الوادي. واخيراً سقطت القطة من يدي دون قصد . وعندما حاول الولد ان ينقذها سقط هو ايضاً في النهر ، وانكسرت ساقه . منذ ذلك الوقت لا يستطيع ان يمشي الا على عكازته . وظننت انه ... هنا ارتجفت شفتاه واختنق صوته حتى لم يعد يستطع التكلم . »

ولكن الطبيب كان يتفهّم الصغار ويحبهم وبهذه الكلمات القليلة المتقطعة فهم القصة كلها ، وتأكد ان هذا الولد المنطرح على الفراش قد نال جزاء فعلته . فقال له: «سنذهب معاً يا لوسيان ، الى الولد. قد يكون الرب انتخبك لتكون الواسطة لشفائه . اذكر يا لوسيان ان الرب قد خلصك باعجوبة ، ولولا عون الرب لما قدرت أن تعبر الممر سالماً ، في جو غاضب كالليلة الماضية . ولذا فعليك ان تكون شكوراً له . »

أجاب لوسيان بخجل واهتمام : « نعم اعرف ذلك تماماً . وقد طلبت من الرب الليلة البارحة ان يشفي داني . وعندما سمعت عنك تأكدت انه استجاب الصلاة. ولكني عندما وصلت الى الغابة شعرت برعب وكدت ارجع . ساعتئذ تذكرت شيئاً سمعته يوم عيد الميلاد، وصممت ان استمر . »

— « ما الذي تذكرته ؟ »

— « تذكرت آية من الكتاب المقدس كانت جدة داني قد قرأتها لنا فحفظتها كلها في طيات قلبي. الآية تقول: «لا خوف في المحبة بل المحبة الكاملة تطرد الخوف الى الخارج» . وقالت الجدة ان محبة يسوع كاملة ، ولذا طردت عني الخوف وواصلت سيري في طريق محفوفة بالمخاطر . لكني لا اذكر عن اجتيازي الممر سوى اني نزلت سالماً .»

— « اجل ولا اظن ان شيئاً آخر سوى محبة الرب يسوع الكاملة كانت قادرة ان تحفظك آمناً في تلك الزوبعة . وهي التي ارشدتك الى الطريق المستقيم ، وحفظتك من الخوف حتى استطعت ان تستمر. لقد غمرك الرب بألطافه يا لوسيان ! دعنا نشكره الآن قبل ان يحضر غداؤنا . »

فاخفى لوسيان وجهه بالمخدة، وجثا السيد جوستاف بقرب السرير وصلى شاكراً المخلص من اجل محبته الكاملة التي هي اقوى من الرياح والعواصف ، من اجل محبة الرب التي قادت خطوات لوسيان في الظلام ، وانقذته من الخوف والموت . ثم طلب من الرب ان يعطيه الحكمة والمهارة ، ليشفي ساق داني .

وصلى لوسيان ايضاً، ووجهه في المخدة ، بصوت خافت ، ولكن قلبه كان يصرخ : « ايها الرب يسوع ! لقد كنتَ قريباً جداً مني في الجبل فكنتُ في مأمن من الخوف . ارجوك ان لا تتركني ! اريد ان افتح قلبي لك ، كما فعلت أنيت . ارجوك ان تدخل . تعال ايها الرب يسوع الى قلبي . »

الفصل العشرون

مضى السيد بطرس نفسه الى المحطة لاستقبال الطبيب ولوسيان، واقلهما على عربته حتى وصلوا الى بيتـه . واسرع جميع سكان القرية الى خارج ابواب بيوتهـم ليشاهدوا الدكتور جوستاف الذي طبقت شهرته جميع انحاء سويسرا .

كان السيد بطرس يسوق العربة صامتاً متحيراً في امره . وكان ايضاً قلقاً لعدم توفر النقود لديه، مع انه كان مستعداً ان يبذل جميع ما يملك لاجل شفاء داني . فما العمل اذاً ؟

وعند دخول الطبيب بيت السيد بطرس كانت الجدة وأنيت وداني قد ارتدوا احسن ثيابهـم . وكانوا جالسين بلا حراك على اطراف كراسيهم .

وضع السيد جوستاف يده في جيبه واخرج منها قطعة شكولاته وقدمها لداني قائلاً : « أتحب الشكولاته ؟ »

فافتر ثغر داني عن ابتسامة مشرقة . كيف لا والشكولاته لديه افضل من حصانه الحربي . فقفز مرحاً في الغرفة نحو الطبيب الذي

كان يراقبه بدقة؛ ولما وصل اليه، رفعه على ركبته وألقمَهُ الشكولاته.
وبعد برهة قال الطبيب : « هل تتألم من ساقك يا داني ؟ »

— « كلا . »

قالت الجدة مُهذّبةً عبارة داني « كلا ، ياسيدي . »

انتبه داني الى ملاحظة جدته فاضاف بعبارة ادبية : « ياسيدي! احياناً ، عندما امشي بدون عكازة تؤلمني ساقي... هل علمت ان على طرف عكازتي رأس دب ؟ أتريد ان تراها ؟ »

وفيما كان داني ذاهباً ليحضر العكازتين كان الطبيب يراقبه بكل دقة.
ولما رجع داني بالعكازتين قال : « استطيع ان اقفز قفزات طويلة بعكازتي . أتريد ان تراني اقفز ؟ »

— « نعم يا بني ! »

فقالت الجدة « انتبه يا داني الى الكرامي . »

والتقطت أنيت القطتين عن الارض بسرعة لئلا يهبط اخوها عليهما . كانت القفزات عظيمة جداً حتى صفق له الطبيب وقال له : «احسنت يا داني . قفزتك تشبه قفزة السنجاب! والآن ألق العكازتين جانباً وتعال الي ... »

فاتجه داني اليه يعرج مبتسماً ويجر ساقه بصورة تدعو الى الشفقة.
فابتسم له السيد جوستاف ورفعه بكل لطف ، واجلسه على ركبته ثانية ، واعطاه قطعاً من الشكولاته . كانت الجدة تراقب كل شيء بانتباه وتقتنع ، مما شاهدته من الطبيب ، بمقدرته وحذقه . فالتفتت الى انيت وقالت : «أنيت! ضعي الابريق على النار وجهزي الشاي، ثم احضري علبة البسكوت . »

وأضجع السيد جوستاف داني على المنضدة وجعل يلوي ساقه ويقلبها مدة طويلة. وما ان انتهى حتى كان الشاي قد حضر. فدعت الجدة الطبيب ليشاركهم ، وجلسوا معاً يشربون . ولكن الطبيب كان غارقاً في افكاره .

فسألت الجدة دون مواربة: «هل من امل في شفاء ساق الولد؟» عندئذ اتجهت كل الأبصار الى الطبيب وكلهم آذان صاغية لسماع الجواب . اما داني فكان ينظر الى البسكوت وقد غفلوا ان يقدموا له قطعة منه ؛ ولم يجسر ان يمد يده الى العلبة لئلا تستاء منه جدته. ولكن ما العمل ؟ فانه يحب هذا النوع من البسكوت الذي تصنعه الجدة خصيصاً مرة في كل شهر .

لم يجب السيد جوستاف عن سؤال الجدة حالاً بل التفت الى داني مخاطباً: «داني! أتريد ان تصبح قادراً ان تركض كالأولاد الصغار الآخرين.» فتردد داني في ما يجيب: « فهو الوحيد في القرية الذي يملك عكازات برأس دب ، مما يحمله على الشعور بانه شخصية معتبرة . ثم تذكر ان فصل الربيع على الابواب ، وقال في نفسه : يتعذر علي ان اركض كالباقين ، فلا أستطيع ان اطارد الجداء الصغار في الحقول كما فعلت في السنة الماضية . هذا النوع من اللهو جعله يفضل ان يكون كباقي الصغار على ان يظل كما هو الآن .

فاجاب : «نعم ، يا سيدي الدكتور ، اريد ان اكون كالباقين . أتسمحين لي بقطعة من البسكوت يا جدتي ؟ »

فلم يجبه احد . وكان لوسيان وأنيت جالسين يحمل كل منهما فنجانه بيده ويحدق بالطبيب الذي اتجه الى داني سائلاً :

« اين ذهبت تلك القطة الجميلة يا داني ؟ »

— « الى البيت الخشبي . أتريد ان تراها ؟ هل تعلم ان لها ثلاثة جراء صغيرة ؟ »

— « نعم اريد . اذهب وأرني اياها . »

فاسرع داني يقفز ليجلب ميمي. وحالما اغلق الباب وراءه التفت السيد جوستاف الى الوالد وقال بلهجة ملؤها الشفقة والحزم والرزانة: «اظن ان ثمة املاً بالشفاء، وان لي قدرة على مساعدتكم. لا اقدر ان اجزم تماماً في القول قبل ان اصوره على الاشعة . يبدو لي ان العظم التحم على غير استواء . لذا استطيع ان اكسره من جديد وأحكم وضعه في مكانه الصحيح. ولكن ذلك يتطلب اجراء عملية ومكوثاً طويلاً في المستشفى . فهل انت مستعد لذلك ؟ وهل انت راغب في ارسال ولدك الى المستشفى فيتيسر لي القيام بمعاينته ومعالجته ؟»

فجعل الاب يفرك يديه بكآبة ، ويتنقل بنظره من الجدة الى أنيت . فالعمليات لم تكن محببذة عند الاب ، وهو ينفر من مجرد ذكرها ! ثم اين له الاموال الكثيرة التي تتطلبها العمليات ؟ فسأله الوالد : « كم تتطلب العملية من النفقات ؟ »

— « لن تتطلب فلساً واحداً ، لان لوسيان قد دفع كل شيء . لا يمكنني الآن ان استفيض في الموضوع اذ يجب ان نصمم ونعتمد على شيء قبل عودة الصبي . أفتسمح لي ان آخذه ؟ »

اجابت الجدة دون ان يوجه السؤال اليها : « اجل ، يا سيدي ، خذه معك . »

فسألت أنيت بلهفة : « متى ؟ »

فأجاب الطبيب : « غداً صباحاً . سأذهب بالقطار الباكر ، وآخذ داني معي . »

— « الى أين اذهب انا في القطار ؟ »

سمع هذا الصوت الناعم من آخر الغرفة . كان داني قد دخل من الباب الخلفي دون ان يشعر به احد . فوقف امام السيد جوستاف وملء ذراعيه قطط؛ وكان الفرح بادياً على محياه . لقد ركب القطار مرة واحدة مدة عشر دقائق ؛ ولن ينسى ابداً تلك الرحلة !..

ولم يعط احد جواباً . كانوا جميعاً محدقين بالطبيب بانذهال .

فسأل داني ثانية : «جدتي الى اين ذاهب انا ؟ »

فالتفت الطبيب الى داني وقال: «يا داني،سآخذك معي في القطار الى البحيرة ؛ وتبقى معي هناك مدة. وآمل ان اعود بك الى البيت بدون علة في ساقك ، أترغب في ذلك ؟ »

فحملق داني،وقال في لهجة تنم عما في صدره من ريب: «وأنيت؟ وجدتي ؟ والبابا ؟ وميمي ؟ والقطط ؟ ماذا يكون منهم ؟ نذهب جميعاً معاً وميمي ! أليس كذلك يا سيدي ؟

فصاحت انيت وقد قرأت في وجه الطبيب استياءه من جواب داني : « لا يا داني ! لا نستطيع ان نذهب كلنا . يجب ان تكون ولداً فهيماً عاقلاً . ان حضرة الدكتور يعتني بك ، ولن يمضي وقت طويل حتى تكون في وسطنا . »

وتغلغلت هذه الكلمات الى صميم داني وكان لها في قلبه وقع رهيب.

وألقى بنفسه وبالقطط جميعاً بين ذراعي أنيت ، وانفجر بكاء وعويلاً ، وهدر غضباً ويأساً ...

فاسرعت أنيت تقبله وتضم رأسه الى صدرها، بينما الجدة امسكت برجليه تهدئه . وعبثاً حاول الاب ان يسكته باعطائه حفنة من البسكوت . ظل يصرخ ويعول ويبكي ، وكان كل واحد ينظر الى الآخر بيأس .

وكان الدكتور جوستاف مصمماً على تدبر الامر بسرعة قبل ضياع الوقت ؛ فالتفت الى الجدة وقال : « هل لهذه البنت اللطيفة خبرة بالاولاد ودراية في طريقة الاعتناء بهم ؟ »

قال هذا بصوت يطغى على صوت الولد . فاجابته الجدة: « انها هي التي ربت داني » . ولكن سوء تصرف الولد في تلك اللحظة لم يكن شهادة على حسن تربيتها للاولاد .

فقال الطبيب : « اذن الاوفق ان تأتي مع اخيها وفي وسعها ان تساعد امرأتي . »

فصاحت أنيت وهي تهز داني بشدة ليصغي: «سآتي معك يادانى.»

حينئذ توقف داني عن الصراخ ونشج ثلاثاً ، وابتسم . اما السيد جوستاف فلم يبتسم بل انهض الصغير وخاطبه بجد : «ارى انك ولد مدلل يا داني . وعندما تأتي الى المستشفى ، عليك ان تعمل كما يقال لك دون صراخ او هدير . »

فنقر داني على صدر الطبيب بسرور وقال : « وايضاً انيت » وابتسم ثانية لانه نال ما تمنى .

فأنزل السيد جوستاف داني الى الارض ثم قال : «اريد ان آخذ لوسيان الى بيته ان سمحتم لي بزلاجة. استأذنكم واستودعكم لرعاية الله. انا بانتظار الولد واخته غداً صباحاً في الثامنة والنصف على رصيف المحطة . وليكن في حقيبتها جميع الحوائج لمدة شهرين او ثلاثة . ارجو ان تساعد انيت امرأتي في الصباح ، وتواظب في المساء على الدرس واتقان واجباتها المدرسية . اما بعد الظهر فتصرفه مع اخيها الصغير . »

ودّعه الأب دون كلمة ، ثم مسح جبينه كمن هو في حيرة ... لقد جرت الأمور بسرعة فائقة ، وها هو يتحقق الآن انه سيبقى بدون أنيت وداني شهرين او ثلاثة ، في بيت صامت . واجتاحت الكآبة نفسه ، فذهب حائراً يتعثر في مشيته الى الزريبة ليحلب البقرات .

اما الجدة فودعت الطبيب على الباب ممسكة بيده زمناً ثم قالت: « انت رجل طيب فليكافئك الرب ويجزل عليك الثواب ! »

ونظر الدكتور جوستاف الى العجوز الشجاعة فتبللت عيناه بالدموع . شاهدها وشاهد حفيديها السعيدين، وشاهد البيت الهادىء النظيف ، فخُيل اليه انها الملاك الحارس لذلك البيت السعيد! وادرك قبساً من المحبة والشجاعة اللتين شددتا يديها المجعدتين وانارتا عينيها الكليلتين لتتم عملاً يفوق قواها الطبيعية . وادرك قبساً من نار تلك الفضائل الرائعة التي يعمر بها صدرها : من روح التضحية والتفاني والعطف على الولدين ... وتأكد ان امامه لا امرأة فقط بل قديسة

من قديسي الله . فأجابها : «وانت ايضاً امرأة طيبة فاضلة فليكافئك الرب اجراً عظيماً ! »

وحمل السيد جوستاف لوسيان ووضعه على الزلاجة وقاده الى بيته. ثم حمله الى امه وكانت جد غاضبة فانهالت عليه تقريعاً وتأنيباً: «يا لك من ولد شقي! يا لتصرفك الذميم ! أهكذا تفعل بنا وتسبب لنا القلق والرعب ؟ انك تستوجب الضرب بالعصا . وانتزعته بحدة من يد السيد جوستاف واصعدته بنفسها الى غرفته واضجعته في فراشه. ثم رجعت وجلست قرب المائدة تمسح دموعها بمئزرها وهي تبكي . »

فقال لها الطبيب : «نعم الولد ولدك! انه لشجاع ، طيب القلب، عامر الصدر بالشهامة ! »

— « ولكنه شقي ! »

واذ كانت معجبة به للغاية ورأته سالماً ، اخذت تبكي اكثر فاكثر.

لقد خبزت في الصباح ، هي وابنتها ماري ، من الكعك اللذيذ الذي يحبه لوسيان، وكان البيت عابقاً بشذى رائحته الشهية. فدعت السيد جوستاف ان يجلس ويأكل منه . لكنه رفض لأن له اموراً مهمة يجب ان ينجزها ، والوقت قصير . فقال يسأل الأم وابنتها : « اظن ان لوسيان يعرف رجلاً شيخاً في هذه الانحاء . هل لكما ان تدلاني على سكناه ؟ »

فرددت ماري : « رجل شيخ ؟ آه ... نعم ! لا بد ان يكون ذاك الشيخ الساكن على رأس الجبل والذي يعلّم لوسيان الحفر على الخشب ويقضيان الساعات معاً. لا اقدر ان افهم ماذا يستلمح لوسيان

في ذاك الشيخ الغريب الاطوار. اغلب الناس يقولون عنه انه مختل».

– « أيمكنك ان تدليني على الطريق المؤدية الى بيته » ؟

– «نعم. انها طريق تخترق الغابة. ولكني انصحك ان لا تذهب، لان الطريق لن تكون صالحة بعد العاصفة الثلجية التي عصفت في الليلة الفائتة . »

– « لي شؤون معه. هل تستطيعين، من عتبة بيتك ، ان تدليني على الطريق ؟ وفي عودتي من هناك أمر لاودّع لوسيان . »

ومضى السيد جوستاف يتوقل الطريق الصاعد . وبدت الغابة ، في ذلك اليوم ، رائعة خلابة . فكانت الاغصان منحنية واكواز الصنوبر تلمع كالنجوم . وبات يتساءل : « من عسى ان يكون ذلك الشيخ الذي يقضي حياته بالسكون والهدوء! أيشارك الغاب اسراره، ويراقب تعاقب الفصول! » كان باشد الشوق الى رؤيته. ولكن ماذا؟ هوذا قلب الطبيب يخفق بسرعة على غير عادته !

وبعد ان قطع الغابة استطاع ان يرى الكوخ قائماً في وسط مرج، وقد طمر الثلج منه نصف الجدران . كان الشيخ قد جرف الثلج عن الطريق الى حدود الأشجار ، كأنه بانتظار زائر. وقرع الطبيب على الباب ودخل دون ان ينتظر الجواب . كان الشيخ مكباً فوق الموقد ينحت الخشب. وكانت هرة الى جانبه وعنزة بجانبه الآخر، تؤنسانه.

فأخذ السيد جوستاف مقعداً وجلس بازائه .

فقال الشيخ مكباً على منحوتاته :«هل وصلت يا لوسيان بامان؟»

– فأجاب الطبيب بصوت هادىء : « انا لست لوسيان . »

اذ ذاك هب الشيخ من مكانه ونظر اليه منذهلاً . وظل كل منهما يحدق بالآخر كأنه يرى شبحاً، او كأن ذلك الشبح قد اصبح حقيقة راهنة متجسمة في لحم ودم .

وقطع ذلك الصمت الرهيب صوت الطبيب يقول « أتيت لارد لك هذا المال . اني لا اريد مالاً لقاء معالجة ولد ! في حالات كهذه اعالج مجاناً حسب طاقتي . »

فاسند الرجل الشيخ ذقنه على عصاه،وأمعن في تفكيره وحيرته. ثم قال : « ارى ان الولد قد نكث بوعده . »

– « كلا ! لم ينكث بوعده ، ولم يقل لي شيئاً سوى ان المبلغ هو من رجل شيخ ، وان المال وفاء دين . ولكن لا أقبل مبالغ طائلة من اولاد القرية ما لم اتأكد انها اموال غير مختلسة . ولم اجد صعوبة في ان استخبر الجيران عنك وعن محل سكناك . »

خيّم سكون طويل في الغرفة . واخيراً قال الشيخ وكان صوته ضعيفاً كئيباً يختلج في حنجرته : « أهذا كل ما تريد ان تقوله ؟ »

وهنا نهض السيد جوستاف وودع الشيخ المنحني الرأس وقال : «هل من داع لأن نستمر متجاهلين احدنا الآخر؟اني اعرف من انت، ولا شك انك قد عرفت من انا.لقد أتيت لآخذك الى البيت يا والدي ! واخبرك كم نحن بشوق اليك ، وكم نريدك ان تكون معنا !.. »

الفصل الحادي والعشرون

كان لوسيان ما يزال شاحب اللون منهوكاً. وكانت أنيت جالسة بقرب سريره وملء عينيها التعب والانذهال فقالت : « اخبرني يا لوسيان عن كل شيء . ان الجميع يلهج بذكرك ويثني على شجاعتك. اخبرني القصة منذ البداية ، يا لوسيان ! ماذا كان عند القمة ؟ »

— « لقد انتابني ذعر شديد قبل ان وصلت الى القمة بقليل . وكدت ارجع الى البيت ؛ ولكن، يا أنيت ، أتذكرين انك قلت لي مرة انك كنت تبغضينني ، وانك طلبت من الرب ان يدخل قلبك فنزع عنك تلك البغضة وحولها الى محبة صافية شديدة ؟ »

— « نعم اذكر ذلك . ولكن لمَ سؤالك يا لوسيان ؟ »

— « لاني اختبرت شيئاً كهذا عندما كنت خائفاً . تذكرت الآية الكتابية التي كلمتنا عنها جدتك ، وتذكرت المحبة الكاملة التي تطرح الخوف خارجاً . فطلبت من الرب ان يطرح الخوف عني . وللحال زال عني الخوف . »

– « ان الرب قد دخل الى قلبك كما دخل الى قلبي . وبدخوله تحول خوفك الى شجاعة كما تحولت البغضاء في قلبي الى محبة. الخوف والبغضاء ، الغش والكذب ، بل جميع الشرور تطرد خارجاً عندما يدخل الرب يسوع الى القلب . »

– « كلامك عين الصواب ، يا أنيت. ان المحبة الكاملة تطرد الى خارج الخوف والأنانية والكذب والكسل والحقد والبغض . وعندما يدخل يسوع الى القلب تدخل ايضاً المحبة الكاملة ... »

وسرد لوسيان قصة مغامراته في الليلة العاصفة . وكانت أنيت تنصت اليه بامعان ، وتفكر في محبة يسوع لها ولصديقها ...

ولما قامت أنيت لترجع الى البيت، كان الظلام قد ارخى سدوله على الثلوج . وتذكرت ان هذه هي الليلة الاخيرة التي تقضيها في البيت ، وانها ستمضي بعيداً للاهتمام باخيها في المستشفى . وشعرت فجأة بغصّة في حلقها وبغشاوة على عينيها ، فغمرت رأسها بذراعيها واجهشت بالبكاء .

– « جدتي ! » .

دعتها الجدة تبكي قليلاً ، ثم اجلستها على الكرسي الصغير امامها واسندت رأسها على ركبتها وجلست تحدثها عن البيت الذاهبة اليه ، وعن العمل الذي سوف تعمله ، وعن سرورها عندما يشفى داني . فانتعشت الفتاة ولم تشعر بان الجدة كانت تقول في اعماق قلبها: «ماذا اعمل غداً في الليالي المقبلة لما ارى هذا الكرسي امامي فارغاً ، ويكون داني غائباً عن سريره» ! كانت ساعة النوم قد فاتت، وكان

عليها ان تستيقظا في الصباح الباكر . أحضرت أنيت الكتاب المقدس من على الرف ، كما اعتادت ان تفعل لتقرأ منه فصلاً قبل ان تنام .

وعندما وضعت أنيت الكتاب الكبير على ركبتيها قال الجدة : «لنقرأ الاصحاح الثالث عشر من الرسالة الاولى الى اهل كورنثوس . اريدك ان تتذكري هذا الاصحاح طول مدة غيابك عنا . »

ولما فرغت أنيت من قراءة الاصحاح قالت الجدة : « يا بنيتي ! العدد الذي اريدك ان تأخذيه معك وتتذكريه دائماً هو العدد الرابع. هل لك ان تقرئي هذا العدد ثانية ؟ »

فقرأت أنيت بتأن وانتباه: «المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد. المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ . »

وضمت الجدة يديها فوق الكتاب ونظرت الى أنيت من خلال نظارتيها وقالت : « انك طلبت من المخلص ان يدخل الى قلبك ، فدخل ، وادخل معه محبته ، المحبة التي قرأنا عنها .

« انت ذاهبة يا انيت لتعتني باولاد صغار . لا تأملي ان يكونوا دائماً لطفاء معك . سوف تشعرين غالباً باستياء وبقلة صبر وبحنق ؛ فلا يغربن عن بالك ان محبة الرب يسوع هي طول أناة ورفق .

«انت ذاهبة الى بيت كبير ، ولا بدّ ان تجدي هناك اشياء جميلة كثيرة ليست لك. قد يسبب هذا لك الحسد او البؤس ولكن تذكري ان محبة الرب يسوع التي في قلبك لا تحسد . اذا كانت محبة الرب ملء قلبك ، فلن يوجد عندئذ مكان للبؤس والحسد .

« انت ذاهبة لتخدمي في بيت اولاد ، فلا تنتظري ان يعيروك اهتماماً دائماً. قد تحاولين ان تظهري براعتك في استمالتهم اليك وحملهم على الاعجاب بك . ولكن تذكري ان محبة الرب يسوع لا تقتحم ولا تتفاخر او تنتفخ ، محبة تستطيع ان تجعلك تستمرين بعملك بكل هدوء وأمانة ، سواء كوفئت عليه أو لا . تذكري ان الرب يسوع هو سيدك . ومهما عملت فلمرضاته اعملي .

« احفظي قلبك مملوءاً بمحبة يسوع . وعندما تداخلك افكار رديئة ، فلا تحاولي ان تطرديها بقوتك ، بل اطلبي من المخلص ان يفتح لك قلبك ثم قولي لتلك الافكار : « لا يوجد لك مكان في قلبي الملآن من محبة يسوع » ، وعندئذ تُطرح كلها خارجاً . »

فأجابت أنيت : « نعم تُطرح كلها خارجاً وتُطرد كالظلمة من الغرفة بدخول النور اليها . » ثم قبّلت جدتها واسرعت الى الحظيرة لتصرف مع والدها نصف ساعة قبل ان تنام .

وفي الغد الباكر ذهبت العائلة كلها الى المحطة بالعربة . وصلوا قبل الميعاد لانهم كانوا يخشون ان يسبقهم القطار. وقفوا على الرصيف بين اوعية الحليب يراقبون النور مشرقاً من جهة الغابة منتظرين السيد جوستاف الذي وافاهم بعد نصف ساعة. وكانت أنيت تحمل حوائجها في حقيبة ؛ وكان داني خجولاً على غير عادته ؛ كان ينفر كلما ضمه احد ليودعه . ولاحظت أنيت حركة غريبة داخل معطف اخيها ، وسمعته يشهق بشدة. فنظرت اليه باستغراب وسألته: «ما هذا الذي في معطفك يا داني ؟ »

فاحمر وجهه وأجاب خائفاً : « واحدة فقط ، يا أنيت ! »

— « ماذا ، واحدة ؟ »

— « قطة واحدة فقط . »

وفك ازرار معطفه فبرز وجه قطة صغيرة بيضاء وشارباها ، ثم اختفت في مخبإها .

فقالت أنيت مؤنبة : « داني، انك ولد رديء جداً. أنسيت ما قالته لك جدتك من انه لن يسمح لك ان تأخذ قططاً الى المستشفى؟ ماذا نفعل بها الآن ؟ »

فنظر داني من نافذة القطار ولم يقل شيئاً . فتش عن عذر لذنبه فلم يجد. وضغط من فوق معطفه على القطة البيضاء فكوّمت جسمها الدافىء داخل جسمه .

الفصل الثاني والعشرون

وحالما وصلوا المدينة أُدخل داني المستشفى ونُقل الى غرفة كبيرة تعج بالاولاد وكلهم عرج مثله . فنظر اليهم داني وصمم ان يسليهم ، فأخذ يقفز امامهم على عكازه فيثير اعجابهم ودهشتهم . وفي خلال ساعة واحدة اصبح صديقاً لكل منهم . اما القطة البيضاء فقد وضعت في سلة في المطبخ وكان يسمح لها بالدخول في اثناء ساعات الزيارة .

واستقبلت السيدة جوستاف أنيت بحفاوة وبشاشة واخذتها الى غرفتها في أعلى البيت. وعندما انفردت أنيت بنفسها ، جالت تتأمل حولها وتنظر من النافذة . فرأت بيوتاً كثيرة وبقايا ثلج في الشوارع، وسماء عابسة بالغيوم . شخصت بعينيها لحظة ثم القت بنفسها على السرير . وللمرة الثانية بكت بمرارة حزناً على بيتها وعلى المروج البيضاء والقمم الناصعة والسماء الصافية .

وجاءت السيدة جوستاف بعد نصف ساعة تتفقد الفتاة لترى ما

جرى لها ، فوجدتها حيث تركتها . فلم تقل لها شيئاً بل ذهبت بخفة ورجعت بالطفلة كلير على ذراعيها ووضعتها على السرير بجانب أنيت، وذهبت دون حركة ولا كلمة. وبعد خمس دقائق كانت أنيت جالسة مع الطفلة مسرورة تبتسم لها ، والطفلة تضحك في حضنها .

كانت أنيت مسرورة في بيت السيد جوستاف رغم اشغالها الكثيرة . ففي الصباح كانت تساعد السيدة وتعتني بالاولاد ؛ وبعد الظهر كانت تجلس الى جانب داني تحدثه وتسليه ؛ وفي المساء كانت تتفرغ لدروسها. لم يكن الأولاد دائماً مسالمين معها، ولذا كانت السيدة جوستاف تضطر غالباً ان تتدخل لاحلال النظام والوئام بين المتخاصمين. وكانت أنيت تستاء منهم جداً في بعض الأحيان وينفذ صبرها ، فتجرب ان تتذكر الآية الكتابية : «المحبة تتأنى وترفق» . وما كان اصعب عليها ترداد هذه الآية مثلاً عندما كان مارك يمتنع عن اصلاح حذائه ، او عندما تسكب روزين الحبر على الارض ، او يهرب منها جان ويسقط في الوحل! ولكن محبة الرب يسوع التي في قلبها كانت تعلمها تدريجياً الصبر واللطف والتضحية ونكران الذات . واخيراً وجدت قوة لتتغلب على طبعها وتتكلم بلطف .

بقي داني في المستشفى اسبوعاً قبل ان اجريت له العملية الجراحية. وعندما ذهب الى غرفة العمليات ، كان جذلاً طروباً ونام بدون وجل . ولما استيقظ بعد ساعات كان مستاء جداً لانه وجد سريره مائلاً، ووجد اثقالاً مثبتة في رجله. وكان هذا يسبب له الماً شديداً،

فشعر بسوء حاله وبحرارة في جسمه، وكان يصرخ ويستنجد بأنيت. وعندما جاءت اليه الممرضة ، نفر منها لانها لم تكن أنيت .

بقي مستلقياً على ظهره اسبوعاً بكامله ، واثقال الحديد متدلية من ساقه . وكانت أنيت تأتي اليه كل يوم ، تقرأ وتحكي له القصص المشوقة ، وتخبره عن المراكب الشراعية البيضاء التي كانت تمخر مياه البحيرة الهادئة وتحاول ان تنسيه ألمه الشديد . اما داني فكان يتقلب على فراشه ؛ ويتلوى وهو على أحر من الجمر .

وكان على جدار غرفته صورة معلقة وعليها بعض كلمات لم يستطع ان يقرأها . وعندما كان يمل من اوجاعه ومن القصص ومن النظر الى البحيرة ومن الاولاد الآخرين ، كان يحدق بتلك الصورة ملياً ، ويتأملها بارتياح .

كانت الصورة تمثل الرب يسوع جالساً في حقل من الزهور يحيط به الاولاد وينظرون الى وجهه . وعلى العشب جلس صبيّ اسمر عند قدمي يسوع وآخر هندي على ركبتيه ، بينما كانت ذراعاه تطوقان ابنة صغيرة بثوب ازرق والاولاد الصينيون ، والذين من الجزر الجنوبية ، واقفين قربه ينظرون اليه .

وبعد مضي اسبوع على العملية تحدث داني مع انيت لأول مرة عن تلك الصورة . كان النهار غائماً ، والسحب الكالحة منخفضة فوق البحيرة . وكانت الغرفة مشعة بالانوار ، واغلب الاولاد نياماً . اما أنيت فظلت جالسة بقرب اخيها ، تؤانسه وتسليه .

ها هو الآن ملق ذراعيه فوق رأسه على المخدة ، وشعره الاشقر مرفوع عن جبهته ، وعيناه الزرقاوان تلمعان . كان تعباً جداً ، لا يتوق الى شيء سوى النوم . لكن الألم في ساقه حجب النوم عن اجفانه ؛ ولذا ادار رأسه لينظر الكتابة تحت الصورة ؛ فسأل اخته قائلاً : « ما هذه الكتابة هناك يا أنيت . »

فأجابت أنيت وهي تنظر اليها : « دعوا الأولاد يأتون الي » .

— « اعرف القصة، فقد حكتها لي جدتي. ولكن قولي يا اختي! أهؤلاء هم الأولاد الذين اتوا الى يسوع في الكتاب ؟ فاني ارى ان ثيابهم مضحكة . »

— « هؤلاء ليسوا الأولاد أنفسهم الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس ، وانما هم اولاد آخرون من كل اجناس البشر ، هنود وافريقيون الخ . وقد تكون الابنة الصغيرة سويسرية ! »

— « ولمَ ؟ »

— « لأن جميع الأولاد على السواء ، دون أي فرق أو تفاوت بينهم ، يستطيعون ان يأتوا الى يسوع . »

— « كيف يمكنهم ان يأتوا الى يسوع ؟ »

— « يكفي ان تقول ليسوع: يا يسوع اريد ان آتي اليك، فيمد يسوع ذراعيه ويحملك ، كما يفعل بهؤلاء الأولاد . »

— «فهمت. لكن يا أنيت ساقي تؤلمني جداً. آه كم اود ان انام.» وابتدأ يبكي ويلقي ذراعيه الى اليمين والى الشمال، وأنيت تلاطفه

وتهز مخدته . ثم اعطته قليلاً من الماء ليشرب ، فتنهد طويلاً وقال :
« غني لي يا أنيت »

فأطاعت أنيت ، وغنت بصوت ناعم ، لانها خجلت ان تسمعها الممرضة :

« بأذرع الآب الحنون تبيت نفسي بسكون ... »

وفيما هي ترنم اغمض داني عينيه ونام . وتراءت له في الحلم صورة يسوع مع الاولاد؛ ولكن عوضاً عن الولد الهندي، جلس آخر ينظر في وجه يسوع وكان ذلك الولد اسمر ضعيفاً وشعره الجعد مصفراً من الشمس ، وعلى العشب امام قدميه عكازتان محفور على كل منهما رأس دب . فقال داني في نفسه : «هذا أنا» !

وفيما هو نائم حدثت عدة امور : « اولاً ، اتى السيد جوستاف ورفع احد الاثقال عن ساقه . ثانياً ، زالت عنه الحمى . ثالثاً ، هبت ريح جنوبية دافئة شتتت الغيوم فانقشعت السماء . ولما استيقظ داني خال نفسه في دنيا جديدة ، فتنفس طويلاً مستنشقاً الهواء العليل وقال : « اشعر بتحسن عظيم ! »

وانفتح الباب فطغت على الغرفة رائحة المطر الدافىء والتراب الرطب . وسمع داني طير يغرد ملء صوته ، وكأنه يقول : « ها الربيع قادم ، قادم ؛ والشفاء اصبح قريباً ، قريباً ، قريباً » . ثم فتح الباب ودخلت أنيت الغرفة متوردة الوجه . كان من عادتها ان تطل عليه بعد الفطور ، لتستعلم عن حاله ففاجأته بقولها : «ألا ترى النهار جميلاً يا داني ؟ انظر الى البحيرة والجبال في الجانب الآخر . انظر الى المراكب الصغيرة . »

فادار داني رأسه وقال : « أنيت اين عكازتاي ؟ »

ـ « وراء الخزانة يا داني . هناك . ولماذا ؟ »

ـ « أترين ذلك الولد المضطجع في الزاوية ؟ لعله بحاجة اليهما . فلماذا لا نقدمهما له ؟ »

ـ « ولكن كيف ذلك يا داني وانت كثير الولع بهما ؟ »

ـ « نعم ، ولكني سوف لا احتاج اليهما بعد الآن . انا متأكد من شفائي في القريب العاجل . وسيكون بامكاني ان اركض بحذاء عادي كسائر الأولاد الاصحاء . »

كان مصيباً في ما يقول. فقد شفي تماماً ولم يعد بحاجة اليهما !..

الفصل الثالث والعشرون

هوذا الربيع في الجبال يغني . اخذت الثلوج تذوب ، وتحولت السواقي الصغيرة الى جداول غزيرة سريعة . ووشى الزعفران الحقول الممتدة على ضفتي النهر . وقطعان البقر والماعز أخذت تلبط بارجلها تريد الانطلاق والحرية . والرياح الجنوبية بدأت تهب في الاودية معبقة الفضاء بشذى الصنوبر .

كانت الجدة ، بمناسبة حلول الربيع ، مشغولة بتنظيف البيت . والسيد بطرس كان كثير الاعتناء بالعجول الجديدة : وانشغالهما هذا ساعدهما على احتمال بعاد الحبيبين عنهما .

وكان لوسيان كلما صعد الجبل يفتكر بأنيت متمنياً لو كانت معه في رحلاته . لم يعد وحيداً بائساً في المدرسة كما كان من قبل . فمغامرته الاخيرة على الجبال اثبتت للاولاد اسفه الشديد على تصرفه السابق الذميم ، فاثنوا على شجاعته وروح التضحية فيه وقبلوه في

صحبتهم. وبالفعل، منذ تلك الليلة التي فيها قبل يسوع مخلصاً شخصياً وطلب منه ان يدخل قلبه ، تحول تحولاً جذرياً . فالخلق السيىء القديم ، والخمول والكسل لم يعد لهما مكان في قلب انفتح لمحبة يسوع . وبدأ لوسيان يشعر تدريجياً بأنه كلما اقترب من الرب بالصلاة وقراءة الكتاب المقدس اليومية كانت المحبة فيه تقوى على الخلق السيىء والخمول، وشعر انه وُلِدَ من جديد يستطيع ان يضبط خلقه عندما يناكده الرفاق ؛ ويأبى أي عمل خسيس .

كان غالباً، بعد انصرافه من المدرسة، يذهب الى الجدة ويساعدها بتنظيف البيت . بالحقيقة لم تكن الجدة قادرة ان تشتغل بدونه ؛ فكان يقطّع لها الحطب ، ويبتاع لها ما تحتاجه من السوق، ويجلب لها الرسائل من القرية . كان يفرح بهذا العمل الأخير جداً ، لانه يعرف ان اكثر الرسائل هي من أنيت . وكانت الجدة تطلب منه ان يقرأ لها الرسائل عالياً ...

واحياناً كان داني يرسل لجدته صورة ضمن الرسالة ، فتحتفظ بها بين صفحات الكتاب المقدس أو تضعها على المائدة لتنظر اليها في كل لحظة. وعند نهاية شهر شباط اصبح لديها مجموعة صور بعناوين كهذه: « انا في الفراش » : «انا خارج الفراش» ، « انا مطارداً المعزى » ، «انا اتناول الدواء» ، «انا والممرضة» ، «انا وأنيت» ، «انا والقطة». وكانت الجدة تجد في تصويره فناً وبراعة غير مألوفة .

وثمة امر آخر كدّر صفاء حياة لوسيان . فصديقه الشيخ هو على أهبة السفر . سيترك الجبل ويذهب الى البحيرة ليعيش مع ابنه

السيد جوستاف. وكان موعد السفر في اوائل شهر آذار. قبل ذهابه بيوم صعد لوسيان اليه ليساعده على حزم امتعته ، وكان قد ارسل عنزته والهرة والدجاج الى مزرعة اخرى ، وباع اكثر منحوتاته . اما الكوخ فلم يشأ ان يبيعه ، بل اكتفى باقفاله على امل العودة اليه يوماً .

ـ «سأتردد اليه غالباً يا لوسيان! لا يمكنني ان اترك الجبل طويلاً. سأبقى هنالك مدة . واذا اصغيت من هنالك الى صوت الجبال تدعوني ، فلن اكون الا ملبياً مجيباً . »

ونظر الشيخ متأملاً في الوادي، ثم الى الرفوف الفارغة في الكوخ وقال : «سآخذ بعض هذه المنحوتات الى الأولاد لعلهم يفرحون بها! ولكني احتفظت بواحدة منها لك يا لوسيان ! قد عثرت عليها الليلة الماضية بينما كنت اجمع المنحوتات . لم اكن ارغب في ان اتخلى عنها ولكن ، اذا اردت الاحتفاظ بها، فأنا اقدمها لك عن طيب خاطر.»

فنظر لوسيان بشوق وقال : « اود من كل قلبي يا سيدي ، لانها تذكرني بك . وقد اتوصل الى ان اعمل مثلها . »

فذهب الشيخ الى الخزانة واخرج منها الهدية التي فرزها للوسيان، ووضعها بيد الولد . ثم راقبه بدقة بينما كان ينظر اليها . انها تظهر بسيطة جداً لاول وهلة . انها صليب خشبي مصنوع من قطعتين ؛ ولكن العارضة كانت مرتبطة الى العمود بحبال منحوتة من الخشب في غاية الاتقان وملتوية بعقد . كانت قطعة فنية مخرمة من خشب نفيس.

لمست اصابع لوسيان القطعة الفنية ثم رفع عينيه المشرقتين الى معلمه الشيخ وقال: «ما اجملها ! انها تفوق التصور. كيف استطعت نحت هذه الجبال دون ان تكسر الخشب؟ وهذا الصليب الذي صلب عليه يسوع ، أليس كذلك ؟ »

ـ « أجل . لقد نحته في الليلة التي توفي سيدي فيها؛ في الليلة التي كلمني فيها عن محبة الله ورحمته . في تلك الليلة آمنت ان خطاياي غفرت . لقد تكلمنا مرة عن المحبة ؛ فالصليب هو ذاك المكان الذي فيه اكتملت المحبة . »

فردد : « المحبة الكاملة !.. هذا ما تقوله آية الجدة . انها دائماً في ذاكرتي . هذا ما كنت انا وأنيت نتكلم عنه في ليلة ذهابها . »

ـ «اجل؟انك ستسمعها دائماً. المحبة الكاملة هي المحبة التي تستمر عاملة حتى لا يعود مجال لزيادة العمل ، والتي تتألم وتحتمل كل شيء حتى لا يعود مجال للاحتمال . ولهذا السبب عندما علق يسوع على الصليب قال : «قد اكمل» . لم تبق خطيئة الا وكفر عنها ، وما من خاطىء الا ويستطيع ان يخلص لان يسوع مات لأجله .

كان الشيخ يتكلم وكأنه يخاطب نفسه ، ولا يفطن الى لوسيان . اما الولد فكان مصغياً اليه بكليته . ثم ودع الشيخ ووعده ان يعود اليه باكراً في الغد ، ليحمل له الحزم والحقائب الى المحطة في طريقه الى المدرسة . ثم ركض الى البيت ، وكان ذلك في شفق احدى

امسيات الربيع ، بينما الثلج يقطر عن الاغصان والهواء الدافىء يهب فيها . كان مسرعاً لانه اراد ان يكتب الى أنيت رسالة ، ويبعثها اليها في الغد مع الشيخ . ولكن قبل كل شيء يجب ان يعلق الصليب الصغير باعتناء فوق سريره. واسرع الى المطبخ ليفتش عن ورقة وقلم.

ثم جلس قرب سريره ليكتب فلمح الصليب المعلق على الحائط . فشخص اليه لحظة يفكر بما قال الشيخ ، « المحبة الكاملة » . شيء غريب ! هوذا يسمع تلك الكلمات مرة اخرى : « المحبة الكاملة تستمر عاملة الى ان لا تجد مجالاً لزيارة العمل ... »

وذهب في الغد باكراً الى الرجل الشيخ وكانت الغابة لا تزال مظلمة . فنزلا معاً تاركين الكوخ الموحش ينتظر رجوع صاحبه. وما ان وصلا الى حافة الغابة حتى انقشع الضباب عن الوادي مع صياح الديوك . ومست الشمس رؤوس الجبال العالية .

سافر الرجل الشيخ في نفس القطار الذي أقلّ أنيت وداني ، وكانت عيناه شاخصتين الى الجبال ! تتأملان بها . وفيما كان القطار يتحرك قال للوسيان :

ـ « عندما يتفتح النرجس ارجع الى هنا . اكتب لي يا لوسيان واخبرني عندما ترى النرجس في الوادي قد ازهر ، فيكون لي وقت كاف لارجع واراه في الجبل . لاتنس يا لوسيان ! »

وطفى على جواب لوسيان صفير القطـار وقرقعة الحافلات ... واختفى القطار وراء منعطف التل .

وبعد ايام اخذ لوسيان رسالة من مكتب البريـد الى الجدة . فاسرع صاعداً التل ليسلمها اياها . ولما وصل الى البيت نادى الجدة بابتهاج يبشرها بوصول الرسالة فاسرعت بشوق وقالت : « اقرأهـا لي يا لوسيان . »

وجلست في الشمس وضمت يديها واغمضت عينيها، لتسمع بدون تشويش . كانت رسالة قصيرة جداً قرأها لوسيان بنفس واحد :

« والدي وجدتي العزيزين

أنا وداني قادمان بعد يومين . شفي داني تمامـاً . نحن بشوق الى رؤيتكم . والدي ، ان داني يتوسل اليـك ان تحضر ميمي معك الى المحطة .

ابنتكم المحبة أنيت »

وقرأ ايضـاً ملاحظة من السيدة جوستاف تخبر عن تمـام ميعاد وصولها، مع صورة فنية من صنع داني بعنوان «انا قادم في القطار»، فلم تتمالك الجدة من البكاء فرحاً وشوقاً اليها . لكنهـا تشجعت ومسحت دموعها وتجلدت، لان أمامها اشياء كثيرة يجب ان تعدها. وقالت للوسيان : « خذ الرسالة الى بطرس ، فها هو في الحظيرة ؛

ثم ارجع الي وساعدني . علينا ان نخرج الفراش الى الهواء الطلق ، ونخبز الكعك ، ونمسح الاثاث جيداً . يجب ان يكون البيت مشرقاً مزداناً لاستقبال الصغيرين ! »

واذ علم الأب بالخبر انشرح صدره وصرخ من شدة فرحه : «اهلاً وسهلاً بالضيفين الصغيرين العزيزين ! »

وفي اليوم التالي ذهب لوسيان عنـــد الفجر الى المروج يلتقط الزهور على انواعها ، واتى بها ونضدها في اجمل وعاء . وذهب الى المحطة متمهلاً لان لديه الكثير من الوقت وفي دماغـه الكثير من التأملات . اما الجدة والاب ومعهما ميمي ، فكانا قد ذهبا بالعربة .

يا للصباح الرائـع ! ويا للربيـع الفتان ! الحقول خضراء موشاة بالازهار . والفضاء يدوي باصوات الاجراس تنبعث من بين القطعان المنبثقة في المروج ناعمة بالربيع والحرية . الجـداء الصغيرة تمرح في الاودية ، والعصافير يسمع تغريدها في الحدائق. كانت الغابة فوّاحة بالأريج ، والقمم البيضاء تناطح السماء الزرقاء .

فكر لوسيان ان هذا النهار كان شبيهاً بذاك الذي وقع فيه داني قبل سنة . ما كان اظلم ذاك النهار !واظلمت الدنيا في عيني لوسيان: أليس هو سبب ذهاب أنيت وداني ، ومسبب هذا الاضطراب ؟ قد يسوؤهما ان يرياه في استقبالهما. قرأ في رسالة انيت ان داني قد شفي، ولكن صعب عليه ان يصدق هذا الخبر .

وصل المحطة وافكاره مضطربة ، فوقف على حدة ... وها هو يخاف من مقابلة الاخوين ويتمنى لو لم يأت . وكان على الرصيف اناس كثيرون بانتظار القطار . وكان السيد بطرس مثبتاً نظره الى آخر حد في الوادي حيث يطل القطار من بين الجبال ؛ والجدة كانت تتعارك وميمي التي كانت تجاهد لتنزل وتقابل القطار بنفسها . فقال الأب ها هو آتٍ . فاقترب الجميع الى الأمام ما عدا لوسيان ، فقد استحوذ عليه شعور بخجل شديد . وتقدم القطار وبانت أنيت في النافذة مع داني بوجه مشرق وهما يصرخان فرحاً . ونظر داني الى الوجوه المحبة وهم يقتربون مرحبين به . وفي تلك النظرة لمح لوسيان واقفاً وحده، فاستغرب ذلك لان قلبه الصغير الطروب أراد ان يضم الجميع اليه . وحينما قفز من القطار ركض اليه صارخاً : « لوسيان! انظر ! اني استطيع ان امشي؛ ان الطبيب الذي شفاني لطبيب ماهر ولطيف جداً ! ها انا استطيع ان اركض ، وكأني لم اقع في النهر . انظري يا جدتي ! انظر يا بابا ! اني اقدر ان اركض بدون عكازتي. انظري يا ميمي ! ان هذه صغيرتك قد كبرت . جدتي ! ألا تشبه القطة امها ؟ »

اما ميمي والقطة الصغيرة فتنافرا وجعلتا تهران على بعضهما متوعدتين . وجاهد داني والجدة لكي يبعداهما عن بعضهما ، وانفجر الجميع يضحكون . أكمل القطار طريقه وهو يهدر . فتعلقت أنيت بوالدها كأنها لا تريد ان تتركه ابداً .

وابتعد لوسيان قليلاً لان عينيه قد ابتلتا بدموع الفرح . وتأكد ان خطيئته قد غفرت ونسيت الى الابد. وها داني يستطيع ان يمشي كأنه لم يصب بأذى .

وفيما لوسيان راجع لاحظ شجرة اللوز على الرصيف مزهرة ... أمس كانت الغصون عارية لكن الربيع قويَ عليها . ومن العود العاري ظهرت ازاهره تتلألأ كالنجوم . الشتاء قد زال ، والزهور بدأت تنمق وجه الأرض . وملأ تغريد الطيور المروج والحقول ...

ان السماء والأرض لفي ابتهاج بسبب شفاء داني وعودة القلوب الى الاخلاص والتآخي !

كتب اخرى للمؤلفة

على درب الحرية : « رب عبد كان حرا » · هذا القول ينطبق على بطل هذه الرواية · فمع انه ولد عبدا وشب عبدا فان جوانحه انطوت على روح متوثبة تواقة الى الانعتاق · لكنه راح يبحث باخلاص عن الحرية ، انما على طريقته الخاصة · وفي كل مرة كانت تعترض سبيله العقبات والعراقيل ·

في هذه الاثناء ، كانت قدمان خفيتان تلاحقانه · فالمسيح كان يسعى وراءه مطاردا اياه بمحبته العجيبة ومحولا كل شيء لخير نفسه الخالدة حتى وصل به الامر ، بعد فراره من عند سيده ، الى رومية · هناك دبرت له العناية الالهية ان يلتقي أعظم رسول في المسيحية ـ بولس ـ وهذا اللقاء آل به الى لقاء أعظم مع سيد بولس ومخلصه ·

٢١٨ ص ٣٢٥ ق٠ل أو ما يعادلها

حميد : ان في هذا الكتاب قوة تكافىء قوة بساط الريح الاسطوري ، انه بساط حقيقي يحمل قارئه الى عالم شرقي لا يزال يحيا في تقاليده ومعتقدات أجداده ، الى بلاد المغرب التي تبرد رأسها في مياه البحر ، بينما تلهب أقدامها حرارة الصحراء · انه قصة المعذبين في الارض ، أولئك الذين تألبت في وجوههم قوى الشر ولعبت في نفوسهم رياح الطيش والبؤس · وهو أيضا قصة الغلبة للانسان الذي آمن بربه ، وخدم الانسانية · مركز المطبوعات (ك ـ ١) ·

٢١٦ ص ٢٥٠ ق٠ل أو ما يعادلها

عوضا عني : كتيب للصغار ، يشرح لهم معنى المحبة العملية ، بأسلوب بسيط جدا ، يمكنه أن يرسخ في عقولهم الصغيرة الى أي مدى تذهب المحبة في عملها بالتضحية ونكران الذات · يحاول هذا الكتيب أن يجعل الاولاد يقتدون بالذي مات عوضا عنهم ، يسوع الذي لم يحتسب لالم الصليب ، لانه كان يقوم بهذا العمل طوعا واختيارا ، وأمل المحبة الحقة · وهو أقرب ما يكون الى ذهن الناشئة ··· مركز المطبوعات (ك ـ ١) ·

١٦ ص ٢٥ ق٠ل أو ما يعادلها